أجاثا كريستي

الليل الطويل

دار النجمة للنشر والتوزيع

الليل الطويل

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

الليل الطويل

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

«في نهايتي بدايتي».

طالما سمعت الناس يقولون هذه الجملة. وهي جملة حسنة الوقع على الأذن، ولكنني لا أدري ماذا تعني حقاً. فهل توجد نقطة ما يمكن للمرء أن يضع إصبعه عليها ويقول: لقد بدأ كل شيء في ذلك اليوم، وفي مثل هذا الوقت، وفي ذلك المكان، وبذلك الحدث بالذات؟

لعل قصتي قد بدأت حين رأيت إعلان البيع معلَّقاً على جدار مطعم «جورج ودراغون» يعلن عن بيع قصر «الأبراج» العتيد بالمزاد بما يتبعه من أراض وأملاك. لم يكن لديّ ما أفعله على وجه الخصوص في ذلك اليوم، وكنت أتجول في الشارع الرئيسي لمدينة كنجستون بيشونب فلاحظت عندئذ إعلان البيع. ولا أعرف لماذا، ولكن لعله القدر، ولعله الحظ هو الذي أراد أن يبتسم لي. مهما يكن فعليك أنت -أيها القارئ العزيز- تقدير ذلك.

ولكن من يعرف؟ لعلك تقدّر أن كل شيء قد بدأ في اللحظة التي التقيت فيها بسانتونيكس، أو أثناء الأحاديث التي

تبادلناها معاً، فإنني أستطيع أن أغمض عينيّ وأن أستعرض في ذهني وجنتيه المتضرجتين وعينيه المتألقتين، والحركات القوية التي تصدر من يديه الرقيقتين اللتين تخططان وترسمان رسوم المباني والعقارات واللتين صمّمتا بيتاً معيناً هو آية من الفن والجمال، بيتاً أصبح ملكي أنا بالذات فيما بعد.

ولكن إذا كانت هذه قصة حب (وهي حقاً قصة حب، وإني لأقسم على ذلك) فلماذا لا أبدأ إذن بتلك اللحظة التي رأيت فيها إيللي لأول مرة، واقفة في ظل شجرة من أشجار الشوح في «أراضي الغجر»؟ أراضي الغجر! في تلك اللحظة ألقيت بغير اهتمام سؤالاً على رجل من الأهالي كان يشذّب سياجاً من النباتات على مقربة: ما شكل هذا البيت المدعو «الأبراج»؟

وما زلت أرى وجه ذلك الرجل الغريب وهو ينظر إليّ ويقول: إننا لم نعد ندعوه بهذا الاسم، فهو اسم لا يدل عليه. وبصق مستهجناً وقال: إن الذين كانوا يقيمون فيه منذ أعوام طويلة هم الذين كانوا يدعونه «قصر الأبراج». وبصق ثانية!

وسألته عندئذ: بمَ يدعونه الآن؟ فحوّل عينيه عني كما يفعل أهل الريف حين لا يوجهون إليك الحديث مباشرة، وينظرون إليك من فوق كتفيك كما لو كانوا يرون شيئاً لا تراه أنت وقال: إننا ندعوه هنا «أراضي الغجر».

سألته: ولماذا تدعونه كذلك؟ فقال: إن لذلك قصة لا أعرف منشأها، فإن بعضهم يقول شيئاً، ولا يلبث البعض الآخر أن يردد ما يقول الأولون، وهكذا... ثم استطرد يقول: ومهما يكن من أمر فإن الحوادث تقع دائماً في هذا المكان.

- تعني حوادث السيارات؟

- بل كل نوع من الحوادث، وكثيراً ما تقع حوادث السيارات في هذه الأيام بالذات. هذا مكان بغيض كما ترى.

- حسناً، إذن كان هذا المكان مشؤوماً حقاً فإنني أدرك الآن أنه لا بد من وقوع بعض الحوادث فيه.

- لقد وضع المجلس القروي علامة تدل على الخطر، ولكنها لم تأت بأية نتيجة لأن الحوادث لم تنقطع.

- ولماذا الغجر بالذات؟

تحولت عيناه بعيداً عني مرة أخرى وأجاب بغموض: إن لذلك قصة. كانت الأرض ملكاً للغجر فيما سبق لكنهم أُبعدوا عنها رغماً عنهم فألقوا عليها لعنتهم.

ضحكت فقال: لك أن تضحك، ولكن هناك أماكن حلت بها اللعنة حقاً، وأنتم معشر أهالي المدن لا تفهمون شيئاً في هذه الناحية. ومهما يكن فهناك أماكن ملعونة، وهناك لعنة على هذه الأرض، فإن بعضهم قد لقوا حتفهم هنا في المحجر وهم يستخرجون الأحجار للبناء؛ فجوردي زلت قدمه ووقع من الحافة ودقت عنقه. لعله كان سكران، هذا جائز فقد كان يحب الشراب، ولكن هناك سكارى كثيرون يقعون ولا يصيبهم شيء، أما جوردي فقد دقت عنقه على الفور.

وأشار إلى الهضبة التي تكسوها الأشجار واستطرد: هناك في أرض الغجر.

نعم، أعتقد أن القصة بدأت هكذا. على أنني لم أعر ذلك أية أهمية عندئذ، ولكني أذكره الآن، وهذا كل شيء. ولا أعرف إذا كنت قد سألت الرجل -في ذلك الوقت أو فيما بعد- إذا كان لا يزال هناك بعض الغجر، وقد أجابني -على كل حال- فقال إنه لم يعد يوجد منهم الكثيرون، فالشرطة لا تفتأ تطاردهم. فسألته: ولماذا لا يحب الناس الغجر؟

قال: ذلك لأنهم جماعة من اللصوص. ثم حدق إلي واستطرد: لعل دماء الغجر تجري في عروقك؟

- لا أظن ذلك بقدر ما أعلم.

والحق أنني أبدو كما لو كنت غجرياً حقاً، وقد يكون هذا هو السبب الذي استمالني إلى اسم أراضي الغجر. وقلت لنفسي وأنا واقف أبتسم أمامه وقد راقني الحديث إن دم الغجر ربما يجري في عروقي.

أراضي الغجر! ارتقيت الطريق المتعرج الذي يمتد إلى خارج المدينة خلال الأشجار الداكنة، وبلغت أخيراً قمة التل بحيث أصبحت أستطيع رؤية البحر والسفن. كان المنظر رائعاً، وقلت أحدث نفسي (كما لا بد أن يفعل كل شخص في مكان كهذا): إنني أتساءل، ماذا يكون الأمر لو أن أراضي الغجر أصبحت ملكي؟

كان خاطراً سخيفاً طبعاً، وحين مررت في عودتي بالرجل العجوز الذي يشذب السياج قال لي: إذا شئت لقاء بعض الغجر فهناك السيدة لي طبعاً، فالميجور أعطاها كوخاً لكي تقيم فيه.

- ومن هو الميجور؟

فأجاب بدهشة: الميجور فيليبوت طبعاً.

وحييت الرجل العجوز وتحولت عنه لكي أنصرف حين قال: إنها تقيم في الكوخ الأخير في آخر الشارع، ولكن ربما لا تجدها في البيت فهي لا تحب البقاء فيه، فدم الغجر يجري في عروقها!

وهكذا سرت في الشارع وأنا أصفر وأفكر في أراضي الغجر. وكنت قد نسيت ما قيل لي تقريباً حين رأيت امرأة طويلة القامة ذات شعر أسود تحدق إليّ من فوق سور الحديقة. وعرفت على الفوز أنها السيدة لي فتوقفت وخاطبتها قائلاً: لقد قيل لي إنك ربما استطعت محادثتي بما تعرفين عن أراضي الغجر.

نظرت إلي من خلال خصلة معقدة من شعرها الأسمر وقالت: لا شأن لك بها أيها الفتى. انسَ أمرها، فأنت شاب وسيم ولا خير لك في أراضي الغجر.

- ولكني أرى أنها معروضة للبيع؟

- هو ذلك؛ لكن الذي يشتريها لن يكون إلا أحمق.

- ومن الذي يحتمل أن يشتريها؟

- أكثر من شخص، لكي يقيم المباني فوقها. ستباع بثمن بخس كما سترى.

فسألتها بفضول: ولماذا تباع بثمن بخس؟ إنها أرض جميلة.

لكنها لم تحر جواباً، فعدت أقول: لنفرض أن بعضهم اشتراها بثمن بخس، فماذا سيفعل بها؟

ضحكت ضحكة خبيثة بغيضة وقالت: سيهدمون البيت القديم ويعيدون بناءه من جديد بلا شك. بل لعلهم يبنون عشرين بيتاً أو ثلاثين فوق الأراضي كلها. ولكن مهما يكن من أمر فاللعنة ستظل باقية!

تجاهلت الجزء الأخير من قولها، ولم أملك إلا أن أقول: سيكون ذلك عاراً، بل عاراً كبيراً.

- آه، لا داعي لأن تقلق. لن يستمتع بها أحد؛ لا أولئك الذين سيشترونها ولا أولئك الذين سيقيمون المباني فوقها. سوف تزل الأقدام من فوق السلم وسوف تتحطم الشاحنة بحمولتها وسوف تقع الكتل الخشبية وتقتل من تقتل، وكذلك الأشجار... سوف تقع فجأة أثناء عاصفة هوجاء. آه، سوف ترى! لن يستمتع أحد بأراضي الغجر؛ من الخير لهم تركها والابتعاد عنها... سوف ترى.

وأومأت برأسها بقوة، ثم عادت تقول كما لو كانت تحدث نفسها: لن يجنوا خيراً إذا ما أقبلوا إلى أراضي الغجر، من الخير لهم تركها والابتعاد عنها. سوف ترى.

وفجأة ضحكتُ فقالت بحدة: لا تضحك أيها الشاب؛ فقد يأتي عليك يوم لا ينفعك فيه الضحك! لا خير هنا أبداً؛ لا في البيت ولا في الأرض.

- ما الذي حدث للبيت ولماذا بقي شاغراً كل هذه المدة؟ لماذا تركوه حتى تداعى هكذا؟

- الذين كانوا يقيمون فيه ماتوا عن آخرهم.

فقلت معلّقاً: ولكن لعلكِ تستطيعين أن تذكري لي قصته، فأنت تعرفين كل شيء عنه.

قالت: أنا لا أحب أن أتكلم عن أراضي الغجر! ثم خفتت من صوتها حتى أصبح شبيهاً بصوت المتسول حين يطلب إحساناً، واستطردت تقول: سأقرأ لك طالعك الآن إذا أردت أيها الشاب الوسيم. ضع قطعة من الفضة في يدي فأقرأ لك حظك، فأنت واحد من هؤلاء الذين ستصيبهم الشهرة ذات يوم.

- أنا لا أؤمن بهذه الخرافات، وليس معي أية قطعة من الفضة على كل حال.

ازدادت مني دنواً وأردفت تقول متملقة: ستة بنسات، ستة بنسات فقط... سأقرأ طالعك بستة بنسات فقط!

أخرجت من جيبي قطعة بستة بنسات. ولم يكن ذلك لأنني أؤمن بهذه الخرافات الحمقاء، ولكن لأنني أحببت طريقتها في الاحتيال على الرغم من أنها كانت واضحة كل الوضوح. واختطفت المرأة العجوز القطعة مني وهي تقول: والآن أعطني يدك... بل يديك الاثنتين.

وأخذَت يدي بين أصابعها ونظرَت إلى راحتيّ المفتوحتين ملياً، ولزمت الصمت دقيقة أو دقيقتين وهي تحدّق إليهما، ثم أفلتهما فجأة... بل حريٌّ بي أن أقول إنها قد دفعتهما بعيداً عنها، وتراجعت خطوة إلى الخلف وقالت بصوت أجش: من الخير لك أن تبتعد عن أراضي الغجر فوراً وألاّ تعود إليها أبداً. هذه نصيحتي لك، فاستمع إليها واذهب ولا تعد.

- ولِمَ لا؟ لماذا لا أعود؟

- لأنك إذا عدت فستعود إلى الأحزان والأشجان، وقد يحف بك الخطر. هناك متاعب، متاعب سوداء في انتظارك. انسَ هذا المكان إلى الأبد ولا تعد إليه.

- حسناً، إني ما كنت...

لكنها تحولت عني وأولتني ظهرها، وأسرعت إلى كوخها فدخلت وصفقت خلفها الباب.

* * *

نظرتُ مرة أخرى إلى الإعلان الخاص بالمزاد، بل إنني وعيتُ تاريخ البيع في ذهني. لم أكن قد حضرتُ في حياتي أي مزاد، ولكنني قررت حضور هذا المزاد بالذات لكي أرى مَن ذاك الذي سيشتري «الأبراج» ويصبح المالك لأراضي الغجر. نعم، هكذا بدأَت القصة حقاً، وخطر بذهني شيء غريب: ماذا لو أنني حضرتُ هذا المزاد وتظاهرت بأنني الرجل الذي يزايد ضد المشترين المحليين؟ إن خيبة أملهم في شرائها بثمن بخس

ستكون كبيرة عندئذ. وماذا لو ذهبتُ إلى رودلف سانتونيكس وقلت له: ابنِ لي قصراً، لقد اشتريت الموقع لك. سأجد فتاة عندئذ، فتاة أتخذها زوجة لي، نعيش فيه (أنا وهي) سعيدَين إلى الأبد.

كانت تراودني أحياناً أحلام من هذا النوع، وهي أحلام لن تتحقق طبعاً، ولكنها كانت أحلاماً حلوة. هذا ما حسبته في ذلك الوقت. حلوة؟ يا إلهي! لو أنني كنت أعلم!

* * *

الفصل الثاني

كانت الصدفة وحدها هي التي دفعتني إلى الذهاب إلى أراضي الغجر في ذلك اليوم، فقد كنت أقود سيارة أجرة ركبها زوجان إلى خارج لندن لحضور مزاد، ولم يكن ذلك المزاد بخصوص بيع بيت أو عقار؛ وإنما كان بخصوص بيع مفروشات ومنقولات. كان البيت الذي تُباع منقولاته كبيراً يقع في ضواحي المدينة، وفي أسوأ ضواحيها بالذات.

كنت في الثانية والعشرين من العمر في ذلك الوقت، وكنت قد جمعت لنفسي حصيلة كبيرة من مختلف المعلومات؛ فصِرتُ أعرف الشيء الكثير عن السيارات وكل ما يتعلق بها. كنت -والحق يُقال- ميكانيكياً بارعاً وسائقاً لا يُبارَى.

لم أقض أبداً مدة طويلة في مهنة واحدة؛ فأنا لا أحب الاستقرار وأَهوى الذهاب إلى كل مكان ورؤية كل شيء وعمل كل شيء. أريد أن أعثر على شيء، نعم، أريد العثور على شيء ما.

* * *

الفصل الثالث

لم أذكر الكثير عن سانتونيكس حتى الآن، ولكن مما لا شك فيه أنكم قد استنتجتم أنه مهندس معماري. لم يكن قد سبق لي أن تعاملتُ مع أحد المهندسين المعماريين على الرغم من أنني أعرف القليل عن فن البناء، ولكنني التقيت بسانتونيكس في ذلك الوقت الذي كنت أحترف فيه مهنة قيادة السيارات، وكان عملي يستدعي السفر إلى الخارج في أغلب الأحيان.

أعود الآن إلى قصتي فأقول إنني اعتدت أن أقود رجلاً مسناً إلى الريفيرا، كان يُبنَى له بيت هناك وكان يذهب من وقت لآخر ليرى سير العمل فيه، وكان سانتونيكس هو المهندس المعماري الذي يبنيه له.

كان ذلك الرجل المسن يغلي من الغضب، وأذكر أنه بمجرد أن وصل ورأى سير العمل اعترته نوبة بحيث خُيِّل إليّ أنه سيُصاب بأزمة قلبية، وصاح يقول: أنت لم تنفذ تعليماتي! لقد أنفقتَ الكثير من المال، بل أكثر بكثير من المتوقع، ونحن لم نتفق على هذا. إن هذا البيت سيكلفني ما لا طاقة لي به.

- أنت على حق، ولكن المال وُجِد لكي يُنفَق.

- ولكني لن أعطيك بنساً واحداً آخر، عليك أن تلزم الحدود التي اتفقنا عليها. هل تفهم؟

- لن تحصل على البيت الذي تتمناه في هذه الحالة. أنا أعرف ماذا تريد؛ إن البيت الذي أبنيه سيكون كما تتمنى تماماً، وأنا واثق مما أقول مثلما أنّك واثق مما أقول؛ فلا تصدع رأسي بمحاضراتك في التوفير والاقتصاد. أنت تتمنى بيتاً فريداً في نوعه وسيكون لك ما تريد، سوف تفتخر به بين زملائك وسوف يغبطونك عليه. أنا لا أشيد البيوت لأي شخص كما قلتُ لك، إن بيتك هذا سيكون بيتاً فخماً رائعاً لا يُقَدَّر بمال ولا يُقَارَن بأي بيت آخر.

- ولكن الأمر شاق وعسير!

- لا، إن مشكلتك هي أنك لا تعرف ماذا تريد، أو على الأقل هذا ما قد يتبادر لمن يسمعك، ولكنك تعرف ماذا تريد حقاً، غير أنك لا تستطيع التحديد. إن لك ذوقاً رفيعاً وإن كنتَ لم تعبِّر عنه صراحة، ودوري يفرض عليّ أن أعطيك البيت الذي ينسجم مع ذوقك هذا.

ومضينا إلى الريفيرا مرة أخرى فيما بعد، وفي تلك المرة كان البيت قد تم بناؤه تقريباً. ولن أصفه لكم لأنني لن أستطيع ذلك كما يجب، ولكن يكفي أن أقول إنه كان بيتاً فريداً في نوعه ورائعاً إلى أقصى درجات الروعة.

وذات يوم قال لي سانتونيكس فجأة: إنني قادر على أن أبني

لك منزلاً أنت أيضاً؛ فأنا أعرف شكل المنزل الذي تتمناه.

فهززت رأسي وقلت: أنا نفسي لا أعرف كيف أتمنى أن يكون.

- لعلك لا تعرف كيف تتمنى أن يكون، ولكنني (أنا) أعرف كيف تريد أن يكون. ثم أردف يقول: مما يُؤسَف له أنك لا تملك المال اللازم لذلك.

- ولن أمتلكه في أي يوم من الأيام.

- مَن يعرف؟ إن مَن يُولَد فقيراً لا يبقى فقيراً، والمال أمره غريب، يذهب إلى مَن يريد.

- ولكنني لستُ موهوباً كي أحصل على شيء منه.

- بل قل إنك لستَ طموحاً بما فيه الكفاية. إن الطموح لم يستيقظ فيك بعد، ولكنه راقد في أعماقك.

هتفت: أعماقي؟! ثم استطردتُ: حسناً، حين يستيقظ هذا الطموح وحين أصيب ثروة سآتي إليك وأقول لك: ابنِ لي بيتاً.

- لا أستطيع الانتظار. نعم، لن أستطيع الانتظار؛ فأنا لن أعمَّر طويلاً ولن أعيش إلا ريثما أبني بيتاً أو اثنين لا أكثر من ذلك. إن المرء لا يجب أن يموت شاباً، ولكن لا بد له من أن يموت... أظن أن هذا لا يهم حقاً.

- يجب أن أوقظ الطموح في نفسي سريعاً إذن؟

- لا، أنت تتمتع بالصحة وتحب أن تنهل من الحياة، لا تغيِّر نهجك.

- ربما لن أستطيع ذلك حتى لو حاولت.

* * *

الفصل الرابع

لم أنسَ خطتي للذهاب إلى المزاد. كان لا يزال أمامي ثلاثة أسابيع لذلك، وكان عليّ أن أقوم برحلتين إلى القارة الأوروبية، إحداهما إلى فرنسا والأخرى إلى ألمانيا، وتأزمت الأمور حين بلغنا هامبورغ؛ فقد شعرت بمقت شديد للرجل الذي كنت أنقله هو وزوجته. كانا وقحين دميمين متهورين، وجعلاني أشعر بأنني لن أستطيع الاستمرار في حياة التملُّق والمداهنة التي كنت أحياها.

ولم يكن هناك داع كي أسبّب لنفسي مشاكل مع الشركة التي تستخدمني؛ ولهذا اتصلت بالفندق الذي ينزلان به وأبلغتهم بأنني مريض، ثم أبرقت إلى لندن بالشيء نفسه وقلت لهم إنني قد أُحتجَز في الحجر الصحي وإنه من الأفضل لهم أن يرسلوا سائقاً آخر ليحل محلي.

سأعود إلى لندن -فيما بعد- وأدَّعي أنني كنت مريضاً جداً، على أنني لم أظن أنني سأفعل هذا؛ فقد سئمت مهنة قيادة السيارات.

* * *

كانت ثورتي تلك نقطة تحول في حياتي؛ فبسببها (وبسبب أشياء أخرى) ذهبت إلى صالة المزاد في اليوم المضروب.

«ما لم تكن قد بيعت باتفاق خاص». كانت هذه الجملة قد أُضيفَت إلى لافتة البيع، ولكن الأرض لم تكن قد بيعت بعد، وكنت شديد الانفعال بحيث لم أدرِ ما كنت أفعل. فكما سبق لي القول، لم أحضر مزاداً عاماً لبيع أرض أو عقار قبل ذلك، وتصورت أن الأمر سيكون مثيراً إلى حد كبير. ولكن لم يكن فيه أية إثارة على الإطلاق؛ فقد كانت الجلسة هادئة إلى أقصى حدود الهدوء ولم يحضرها غير ستة أشخاص أو سبعة. وكان الدلال لا يشبه في شيء الدلالين الذين رأيتهم قبل ذلك يباشرون مزادات الأثاثات والمفروشات؛ فهؤلاء قوم ذوو أصوات مرحة صاخبة يحبون الدعابة، أما ذلك الذي أعنيه فقد راح يتكلم بصوت هادئ يكاد لا يُسمَع ممتدحاً العقار وواصفاً المنطقة ومساحتها، ثم أعلن بدء البيع.

وبدأ أحدهم المزاد بمبلغ خمسة آلاف جنيه؛ فابتسم الدلال ابتسامة ساخرة تنطق بالإعياء كما لو كان قد سمع دعابة أو مزحة غير مليحة، ثم أبدى بعض الملاحظات وبدأ المزاد من جديد. ولكنه لم يلبث أن أعلن بصوت كئيب انتهاء المزاد وإلغاء البيع؛ لأن العروض التي قُدِّمت تقل بكثير عن المبلغ الأساسي المطلوب.

قلت أخاطب أحد القرويين الواقفين بجواري: كانت جلسة مملة.

فأجابني بقوله: كالعادة دائماً. هل حضرتَ كثيراً من المزادات؟

- لا، هذه أول مرة.

- لعلك حضرتَ إذن بدافع الفضول؛ فأنت لم تشترك في المزايدة؟

أجبت: هو ذلك، أردتُ أن أرى كيف تجري الأمور.

- حسناً، هكذا المزادات دائماً، جس النبض لمعرفة هل هناك من يهمه الأمر لا غير.

نظرت إليه مستفهِماً فقال: هناك ثلاثة يهتمون بذلك على كل حال؛ ويذري من هلمنستر، وهو مقاول يشتغل في البناء كما لعلك تعرف، وداكهام وكومب، وأظنهما يمثلان إحدى شركات ليفربول، ثم رجل غريب قادم من لندن، ولكنه يبدو شديد الحذر، ومما لا شك فيه أن هناك أشخاصاً آخرين غير هؤلاء. يُقال أن هذه المنطقة ستُباع بثمن بخس جداً.

سألته: وهل لسُمعتها دخل في ذلك؟

- آه، هل سمعتَ ما يُقال عن أراضي الغجر إذن؟ إن هذه القصة شائعة في الريف، وكان يجب على مجلس القرية أن يهتم بهذا الطريق منذ سنوات؛ فهو طريق شديدة الخطر.

* * *

انتهى المزاد، ومشيت وحدي عابس الأسارير متحيراً،

وأخذتني قدماي -على غير وعي مني- إلى الطريق الذي يقع بين أشجار الشوح فوق التل، حيث ينعطف أخيراً ويؤدي إلى الأرض البور.

وهكذا بلغت البقعة التي رأيتُ فيها إيللي لأول مرة، كانت -كما سبق لي القول- واقفة بجوار شجرة كبيرة من أشجار الشوح، وكانت تبدو عليها نظرة، إذا جاز لي أن أقول: نظرة مَن لم يكن موجوداً قبل ذلك بلحظة، وكما لو كانت قد خرجت وتجسدت من أعماق الشجرة نفسها.

كانت ترتدي ثوباً من التويد الأخضر الداكن، وكان شعرها أحمر بلون ورق الخريف، وكان يشع من كل كيانها شيء كما لو كانت تنظر إليّ. وارتعدت شفتاها كما لو كانت قد جفلت لرؤيتي، وأظن أنني قد جفلت أنا الآخر وأردت أن أقول شيئاً، ولكنني لم أدرِ ماذا أقول.

وأخيراً قلت: أنا آسف؛ فلم أشأ أن أخيفك، لم أظن أن أحداً هنا.

قالت (وكان صوتها رقيقاً ناعماً أشبه بصوت الطفلة): لا بأس، أنا الأخرى لم أكن أظن أن أحداً هنا.

وجالت ببصرها فيما حولها ثم أردفَت: إنه مكان منعزل.

وسَرَت في أوصالها رعشة خفيفة. والواقع أن الطقس كان قد تحول وأصبح بارداً بعض الشيء بعد الظهر، ولكن قد ترجع الرعشة التي تملكَتها إلى شيء آخر غير الطقس. ودنوتُ

منها خطوة أو خطوتين ثم قلت: إن المكان يبدو مخيفاً بعض الشيء؛ أعني منظر البيت وهو أطلال متداعية هكذا.

فقالت في تفكير: «الأبراج»... هذا اسمه، أليس كذلك؟ ومع ذلك فأنا لا أرى فيه أية أبراج!

فقلت: أعتقد أن هذا مجرد اسم؛ فالناس درجوا على إطلاق أسماء غريبة على بيوتهم لتضفي عليها أهمية أكبر.

ضحكَت قليلاً وقالت: أظن ذلك. لعلك تعلم أن البيت والأراضي التابعة له كانت معروضة للبيع في المزاد اليوم.

- نعم، أنا عائد لتوي منه.

جفلَت وقالت: آه. هل أنت مهتم بالمكان؟

- وماذا أفعل ببيت متداع مدفون بين أشجار الشوح وتحوطه أراض بور؟

سألتني: هل اشتراه أحد؟

- لا، لم يصل المزاد إلى المبلغ المطلوب.

قالت وقد بدا عليها الارتياح: آه، حسناً.

فسألتها قائلاً: لعلك لا تريدين شراءه؟

- لا، لا طبعاً!

وبدا عليها الانفعال وهي تنطق بهذه الكلمات، وترددتُ عندئذ، ولكن لم تلبث أن تدفقت الكلمات من بين شفتيّ

فقلت: إذا كنتُ قد ادّعيت أنني لا أريد شراءه فما ذلك إلا لأنني لا أملك الوسائل لذلك، ولكنني أود لو أشتريه حقاً، بل أريد أن أشتريه... لكِ أن تضحكي، ولكن يخامرني إحساس بأنني سأكون في هذا البيت... في بيتي.

- ولكنه أطلال متداعية.

- أعلم ذلك، ولكنني لا أعني أنني أريده على حالته الراهنة؛ بل أريد أن أزيل هذه الأطلال، فالبيت بغيض وأعتقد أنه كان بيتاً كئيباً موحشاً ينبعث منه الحزن والأسى، ولكن المكان جميل. انظري إلى هذه الناحية... تعالي هنا بين هذه الأشجار، انظري إلى المنظر من مكانك هذا خلال التلال والأراضي البور. هل ترين؟ تعالي هنا.

وأخذتُها من ذراعها ومضيتُ بها إلى بقعة أخرى، وإذا كنا قد تصرفنا على غير ما تتطلبه التقاليد فأعتقد أنها لم تلحظ ذلك. ومهما يكن فأنا لم أمسكها بطريقة منفرة؛ وإنما أردت أن أريها ما أراه أنا نفسي، وقلت: انظري إلى هذه الناحية، من هنا ترين الطريق وهو ينحدر إلى البحر حيث تبدو الصخور. إن تلك الصخور تخفي مدينة مدفونة في الوادي لا نستطيع رؤيتها بسبب التلال والغابات الكثيفة، وإذا أُزيلَت الغابات ومُهِّد الطريق لاستطعنا أن نبني في هذا المكان بيتاً جميلاً غير البيت القائم الآن، بيت رائع يبدو جوهرة حقيقية في هذا الإطار البديع، بيت يطيب للمرء الإقامة فيه، بيت عظيم يبنيه لكِ مهندس معماري عبقري.

قالت في شيء من الشك: وهل تعرف مهندساً معمارياً عبقرياً؟

قلت: أعرف واحداً.

ثم رحتُ أحدثها عن سانتونيكس. وجلسنا جنباً إلى جنب فوق جذع شجرة ورحت أتكلم. نعم، تكلمت مع تلك الفتاة الرقيقة التي ظهرَت أمامي فجأة في ظل شجرة من أشجار الشوح والتي لم يسبق لي أن رأيتها قبل اليوم... أطلعتها على كل ما يعتمل في أعماقي من خواطر وخلجات، وفعلت ذلك بكل صدق وإخلاص، واختتمت حديثي معها قائلاً: إنها أحلام وأمنيّات لن تتحقق طبعاً، وأنا واثق من أنها لا يمكن أن تتحقق، ولكن ضعيها أمام ذهنك وفكري فيها كما أفكر أنا؛ سنقطع الأشجار في ذلك المكان ونزرع مكانها الورود والأزهار الصحراوية الجميلة، وسيأتي صديقي سانتونيكس، وسيتملكه السعال بما فيه الكفاية لأنني أعتقد أنه مشرف على الموت لفرط ضعفه وهزاله، ولكنه يستطيع أن يبني لنا ذلك البيت قبل أن يموت. نعم، سيستطيع ذلك، يمكنه أن يبني لنا بيتاً يفوق كل البيوت التي بناها حتى اليوم. أنت لا تعرفين روعة البيوت التي يشيّدها فهو يبنيها للأثرياء فقط، ولا بد أن يكونوا من الأثرياء وأن يقدِّروا الجمال، إنها أشياء يحلم بها الناس ويمكن أن تتحقق... أشياء رائعة!

قالت إيللي: أنا أريد بيتاً كهذا، لقد جعلتني أراه وأتمناه. نعم، سيكون بيتاً جميلاً رائعاً تطيب الإقامة فيه. إن كل ما يتمناه المرء يمكن أن يتحقق، يمكن للإنسان أن يقيم هنا وأن

يكون حراً من كل قيد، لا يعبأ بالتقاليد ولا بآراء الناس الذين يحملونه على أن يفعل ما لا يريد ويحرصون على أن لا يفعل ما يريد. آه، لقد مللت حياتي وسئمت الناس الذين معي وسئمت كل شيء!

هكذا بدأ الأمر معنا أنا وإيللي؛ أنا بأحلامي وهي بثورتها ضد المعيشة التي تعيشها. وأمسكنا عن الحديث ونظر كل منا إلى الآخر وقالت: ما اسمك؟

- مايك روجرز... مايكل روجرز. وأنتِ، ما اسمك؟

- فينيللا.

وترددَتْ قليلاً ثم أردفَت: فينيللا جودمان. ونظرَت إليّ وعلى وجهها أمارات الضيق والجذع.

ولم يكن هنا ما يدل على أن حديثنا هذا سيتطرق إلى ناحية أخرى، وأخذ كل منا ينظر إلى الآخر، وأراد كل منا أن يضرب موعداً للآخر للقاء من جديد؛ ولكننا -في تلك اللحظة بالذات- لم ندرِ كيف نعبِّر عما نريد؟

* * *

الفصل الخامس

حسناً، هكذا بدا الأمر بيني وبين إيللي. والواقع أن العلاقة لم تتطور بيننا سريعاً، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى أن كلاً منا كانت له أسراره الخاصة. كل واحد منا كانت لديه أشياء يريد إخفاءها عن الآخر، ولهذا لم نتبادل الكثير عن شؤوننا الخاصة كما كان يجب أن نفعل وبقينا شديدَي الحرص والحذر كما لو أن هناك جداراً فاصلاً بيننا ولم نستطع أن نتكلم على المكشوف، ولم يستطع كل منا أن يسأل الآخر: متى أراك ثانية؟ وأين يمكن أن نلتقي؟ وأين نقيم؟

كان كل منا يخشى أن يسأل الآخر لأنه كان يتوقع أن يسأله عندئذ عن الشيء نفسه.

لقد بدت فينيللا وجلة مترددة حين ذكرَت لي اسمها، لدرجة أنني اعتقدتُ (لمجرد لحظة خاطفة) أنه ليس اسمها الحقيقي، بل إنني أعتقد أنه اسم زائف إلى حد ما، ولكنني أدركت طبعاً أن هذا محال لأنني أنا نفسي ذكرت لها اسمي الحقيقي.

ولم نعرف كيف نفترق في ذلك اليوم، واستولى علينا الارتباك. كان الطقس قد تغير وأصبح يميل إلى البرودة وأراد كل منا مغادرة المكان، ولكننا لم ندرِ كيف نفعل لفرط ارتباكنا! وحاولت أن أنقذ الموقف فقلت: هل تقيمين في هذه الأنحاء؟

فأجابتني بأنها تقيم في ماركيت شارويل (وهي قرية صغيرة تقع على مقربة، فيها فندق من ثلاثة أدوار خمّنتُ أنها نزيلة فيه). وسألتني بارتباك مثلي: وأنت، هل تقيم هنا؟

قلت: لا، أنا لا أقيم هنا؛ بل أقبلتُ اليوم لحضور المزاد.

ثم خيم الصمت بيننا من جديد. كان صمتاً يسوده الارتباك، وسرَت ببدنها رعشة خفيفة؛ فقد هبّت نسمة باردة في تلك اللحظة فقلت: أظن من الأوفق أن نتمشى قليلاً لكي يسري الدفء في أوصالنا. ألديك... هل معكِ سيارة أم ستعودين بالحافلة أو القطار؟

أجابتني بأنها تركَت سيارتها في القرية وأردفَت تقول: ولكنني سأكون على ما يرام.

بدا عليها الانفعال شيئاً ما، وخطر لي أنها ربما تريد التخلص مني ولكنها لا تدري كيف تفعل، فقلت: لنهبط المنحدر ولنذهب إلى القرية.

رمقتني بنظرة تنطق بالامتنان ثم هبطنا المنحدر في بطء، ذلك المنحدر الذي حفلت به حوادث السيارات. وحين اقتربنا من أحد المنحنيات برز أمامنا فجأة شبح من خلف إحدى

أشجار الشوح بحيث جفلَت ايللي وصاحت قائلة: ياإلهي!

وكان الشبح لتلك المرأة التي رأيتها في اليوم السابق على باب كوخها (السيدة لي) وإن بدت لي اليوم أكثر حدة وخشونة، حيث تهدَّلت ضفائر شعرها الأسود وراحت تتطاير في الهواء وألقت حول كتفيها معطفاً قرمزي اللون، وبدت لي وهي واقفة تنظر إلينا أطولَ قامة مما هي حقاً، وقالت: ماذا تفعلان هنا أيها العزيزان؟ ما الذي جاء بكما إلى أرض الغجر؟

قالت إيللي: لا أظننا قد تعدَّينا على أملاك الغير؟

- بلى، كأنما فعلتما؛ لأن هذه المنطقة ملك للغجر وإن كانوا قد أُقصوا عنها. لن تصيبا خيراً هنا ولن يصيبكما أي خير في التجوال هنا كذلك.

لم تُبدِ إيللي أية معارضة؛ فهي لم تكن من هذا النوع، واكتفت بالقول في رقة وفي لهجة مهذبة: نعتذر إذا كنا قد أتينا حيث لا يجب؛ لقد ظننت أن هذا الموضع معروض للبيع اليوم.

قالت المرأة العجوز: سوف تجلب هذه الأراضي النحس لمن يشتريها. اسمعي يا جميلتي (فأنت جميلة بما يكفي): سوف يصيب النحس من يشتري هذه المنطقة؛ فاللعنة قد حلت بها. ضعي هذا نصب عينيكِ وابتعدي عن منطقة الغجر؛ فالموت والخطر يكمنان فيها، اذهبي بعيداً عنها ولا تعودي إليها ثانية. لا تقولي إنني لم أحذّرك.

ردت إيللي في امتعاض خفيف: ولكننا لم نفعل أي ضرر.

وهنا تدخلتُ قائلاً: اسمعي يا سيدة لي، لا تخيفي هذه الآنسة الشابة.

وتحولتُ إلى إيللي وقلت موضحاً: السيدة لي تقيم في القرية، لها كوخ هناك، إنها تقرأ الطالع وتتنبأ بالمستقبل. أليس كذلك يا سيدة لي؟

خاطبتُها بطريقة ساخرة، ولكنها أجابت تقول في بساطة وهي تمد قامتها بأكثر ما تستطيع: أنا أملك هذه الموهبة، أملكها حقاً؛ فقد وُلِدَت معي، ولكننا نملكها جميعاً. سأقرأ لك طالعك يا سيدتي الشابة. ضعي بعضاً من الفضة في راحتي فأقرأ طالعتك.

- لا أظن أنني أريد أن يقرأ لي أحد طالعي.

- من الحكمة أن تفعلي فتعرفي شيئاً عن المستقبل، يجب معرفة ما ينبغي أن تتجنبيه وماذا يصيبك. تعالي، أنا أعرف أشياء من الحكمة لكِ معرفتها.

أعتقد أن الدافع إلى معرفة الخطر عند النساء لا يختلف تقريباً، وقد لاحظتُ ذلك قبلاً عند الفتيات اللاتي عرفتهن، كنت أدفع لهن تقريباً من جيبي لكي يذهَبن إلى قارئات البخت إذا ما اصطحبتهن إلى السوق. وفتحَت إيللي حقيبتها ووضعت نصف جنيه في راحة المرأة العجوز، فقالت هذه الأخيرة: آه، الأمر على ما يرام يا جميلتي، اسمعي ما تقوله لك الأم لي.

خلعَت إيللي قفازها وألقت براحتها الصغيرة الرقيقة في يد المرأة العجوز، ونظرت هذه إليها وهي تقول لنفسها: ماذا أرى الآن؟ ماذا أرى؟

وفجأة أفلتَت السيدة لي يد إيللي وقالت: لو كنتُ مكانك لأسرعت بالابتعاد عن هذا الموضع. اذهبي ولا تعودي ثانية، انسي أراضي الغجر وانسي أنك أتيتِ إليها، لا أعني البيت المتداعي فحسب بل أقصد المنطقة كلها، إنها ملعونة!

فقلت في خشونة: هذه هلوسة، مهما يكن من أمر فلا دخل للسيدة الشابة بهذه المنطقة؛ فلقد جاءت بقصد النزهة فحسب ولا دخل لها بالجيرة كلها.

لم تعبأ العجوز وقالت بإصرار: يمكنكِ أن تعيشي سعيدة، ولكن يجب أن تبتعدي عن الخطر. لا تأتي إلى هذا الموضع مرة أخرى لأن الخطر يكمن فيه وقد حلت به اللعنة. اذهبي بعيداً، بعيداً جداً حيث يحبك الجميع وحيث يدللونك ويعنون بك، يجب أن تكوني على حذر. تذكري نصيحتي هذه وإلا... وإلا...

وارتجفَت رجفة يسيرة وأردفت تقول: أنا لا أحب رؤية ذلك، لا أحب رؤية ما في يدك.

وبغتة ألقت بنصف الجنيه في يد إيللي وهي تنطق بشيء لم أتبيَّنه، ولكن بدا لي أنها تقول: هذا فظيع، فظيع! إن ما أراه فظيع!

وأولتنا ظهرها وانصرفت عنا في خطوات سريعة، وعندها قالت إيللي: يا لها من امرأة مخيفة!

فقلت بصوت أجش: لا تعبئي بها؛ أظنها مجنونة أو مخبولة، إنما تريد إفزاعك. أظن أن الأهالي يتوجسون من هذه المنطقة.

- هل وقعت بها حوادث؟ حوادث مكدِّرة؟

- الحوادث تقع في كل مكان. انظري إلى ذلك المنحدر وإلى ضيق الطريق، إن أعضاء مجلس القرية يجب أن يُقدَّموا للمحاكمة لأنهم لم يفعلوا شيئاً يمنع هذه الحوادث من الوقوع، ستقع حوادث أخرى طبعاً في ذلك المنحدر فليست فيه أية علامات أو إشارات إلى الخطر.

- هل اقتصر الأمر على الحوادث فقط؟ ألم تقع أشياء أخرى؟

- اسمعي، إن الناس يتأثرون بما يسمعون بسهولة، فما إن تقع كارثة في مكان ما أو ما إن يقع شيء غير عادي حتى ينسجوا حوله القصص الخيالية.

- وهل لهذا السبب ستُباع أراضي الغجر بثمن بخس؟

- هذا جائز، ولكنني لا أعتقد أن أحداً من الأهالي سيُقْدِم على شرائها. أظن أن الذي سيقدم على ذلك إنما سيفعل لكي يستثمر أمواله... ولكنك ترجفين! وأردفتُ أقول: لا ترتجفي،

هلمي بنا، سنسرع في سيرنا. هل تفضلين أن أفارقك قبل المدينة؟

- لا، ولماذا تفعل ذلك؟

قمت بمحاولة يائسة قائلاً: أصغي إليّ، سأكون في ماركيت شارويل غداً، وأعتقد... لا أعرف، هل ستكونين هناك؟ أعني... أليست هناك فرصة في أن أراكِ و...؟

وجررتُ قدميّ وأشحت بوجهي عنها، وأظن أن وجهي قد تضرّج بالحمرة وأخذتني الحيرة، فأنا إذا لم أستطع أن أنطلق بشيء في هذه اللحظة بالذات فكيف أدبِّر أمري معها إذن؟

قالت: بلى، فأنا لن أعود إلى لندن قبل الليل.

- إذن فربما... هل لكِ... أعني... إنها لوقاحة مني.

- لا، إنها ليست كذلك.

- حسناً، لعلك تقبلين أن تتناولي الشاي معي في أحد المقاهي، مقهى «الكلب الأزرق» مثلاً؛ إنه مكان جميل و...

ولم أستطع أن أجد الكلمة التي أريد فاستخدمتُ الكلمة التي طالما سمعت أمي تنطق بها وقلت في شيء من القلق: إنه مكان لائق.

ضحكَت إيللي عندئذ وقالت: أنا واثقة من أنه مكان لائق. نعم، سآتي في الساعة الرابعة والنصف. هل يوافقك هذا الموعد؟

- سأنتظرك، أنا في بالغ السرور.

ما كنت لأدري سبباً لسروري عندئذ. وبلغنا آخر منحنى في الطريق، ورأيت البيوت ترتفع على مبعدة فقلت: إلى الملتقى إذن، إلى الغد، ولا تفكري في تلك المرأة العجوز الشمطاء ثانية. أظن أنه يروق لها إخافة الناس، وهي ليست كل شيء هنا.

وسألتني إيللي: هل تعتقد أنه مكان مخيف؟

- منطقة الغجر؟ لا، لا أظن ذلك.

* * *

جاء الرد سريعاً وبغير تردد. والحق أنني لم أكن أعتقد في ذلك الوقت بأن منطقة الغجر مكان مخيف كما رأيت فيما بعد، وكنت أعتقد أن المكان جميل لإقامة قصر رائع فيه.

حسناً، هكذا تم لقاؤنا أنا وإيللي لأول مرة، ومضيت إلى ماركيت شارويل في اليوم التالي وانتظرت في مقهى «الكلب الأزرق»، ولم تلبث أن أقبلت. وتناولنا الشاي وتبادلنا الحديث، ولم يذكر أحدنا الكثير عن نفسه في ذلك اليوم أو عن حياته وإنما تحدثنا عن الأشياء التي نفكر فيها ونحس بها. ثم لم تلبث إيللي أن نظرت إلى ساعتها وقالت إنها يجب أن تنصرف؛ فقطار لندن سينطلق في الخامسة والنصف، فقلت: حسبتك أتيتِ في سيارة.

بدا عليها الارتباك شيئاً ما عندئذ، ولكنها لم تلبث أن قالت إن السيارة التي جاءت بها بالأمس ليست ملكاً لها، إلا أنها لم تقل لمَن كانت. وخيم الارتباك علينا لحظة، وأشرت إلى الساقي ونقدته الحساب ثم خاطبتُ إيللي قائلاً: هل... هل أراك ثانية؟

لم تنظر إليّ، وإنما أطرقَت إلى المائدة وهي تقول: سأبقى في لندن أسبوعين آخرين.

- أين؟ ومتى؟

وتواعدنا على اللقاء في منتزه ريجنت بعد ثلاثة أيام. وكان يوماً جميلاً؛ تناولنا الطعام في الهواء الطلق وتنزهنا في حديقة الملكة ماري وجلسنا على أحد المقاعد وأخذنا نتبادل الحديث. ومنذ تلك اللحظة بدأنا نتكلم عن شؤوننا؛ حدثتُها عن أيام المدرسة، ولكنني مع ذلك لم أذكر لها كل شيء. ثم حدثتها عن الأعمال التي مارستها، أو عن بعضها بوجه أصح، وأوضحتُ لها كيف أنني لم أتعلّق بأي عمل منها مفسِّراً لها عدم استقراري وبقائي في عمل واحد وقتاً طويلاً. ومن العجيب أنها أبدت اغتباطها وسرورها لذلك وقالت: إن الأمر مختلف، مختلف جداً وبصورة رائعة.

- مختلف؟ عن أي شيء؟

- عني أنا.

- هل أنتِ ثرية؟

- نعم، أنا فتاة ثرية مسكينة.

وحدثتني عندئذ في كلمات متقطعة عن أقاربها الأثرياء وعن الرفاهية التي تعيش فيها وعن أصدقائها الذين يُفرَضون عليها فرضاً، وعن عجزها عن أن تفعل ما تريد، وعن لقائها بقوم لا تحب لقاءهم على الرغم من أنهم يستمتعون بصحبتها. وقالت إن أمها ماتت وهي لا تزال طفلة وإن أباها تزوج للمرة الثانية ثم مات بعد سنوات قلائل، وفهمت من حديثها أنها لا تهتم كثيراً بزوجة أبيها وأنها قضت أغلب سني حياتها في أمريكا، كما عرفتُ أنها تسافر إلى الخارج كثيراً.

وبدا لي أنني أستمع إلى قصة خيالية، واستغربت أن تعيش فتاة في مثل سنها هذه المعيشة التي أشبه ما تكون بمعيشة المنفيين. كانت تختلف طبعاً إلى الحفلات والمآدب، ولكن خُيِّل لي -وأنا استمع إليها- أن ذلك كان منذ خمسين سنة. كانت حياتها خالية من البهجة والمرح وتختلف كل الاختلاف عن حياتي، ومهما يكن فقد طاب لي أن أستمع إليها، ولكن بدا لي ذلك سخيفاً فقلت غير مصدق: ليست لكِ صديقات مخلصات إذن؟ وماذا عن الفتيان؟

فقالت في مرارة: إنهم يختارونهم لي مسبقاً ولا تروق لي صحبتهم.

- كأنك في سجن!

- هذا ما يبدو لي.

- ولكن... ألا أصدقاء لكِ حقاً؟

- لي صديقة الآن، هي غريتا.

- ومَن هي غريتا؟

- رفيقتي، أقبلَت في البداية بصفتها وصيفة لي، كانت لي وصيفات كثيرات غيرها؛ كانت هناك فتاة فرنسية أقامت معنا سنة علمتني فيها اللغة الفرنسية، ثم أقبلت غريتا من ألمانيا أخيراً كي تعلمني الألمانية، وغريتا تختلف كثيراً عن غيرها من الوصيفات السابقات.

- هل تحبينها كثيراً؟

- إنها تساعدني مساعدة فعّالة؛ فهي تدبر لي أموري بحيث أستطيع أن أفعل ما أشاء وأذهب إلى أي مكان أريد. إنها تقدِم على الكذب في سبيلي، وما كان في استطاعتي القدوم إلى أرض الغجر لولاها هي؛ فهي التي ترافقني وتهتم بي أثناء إقامتي في لندن بينما تبقى زوجة أبي في باريس، وإذا أردتُ الهرب إلى مكان ما أكتب خطابين أو ثلاثة مسبقاً وأعطيها لغريتا فترسلها مكاني من وقت لآخر.

- ولماذا ذهبت إلى منطقة الغجر؟ لأي سبب؟

لم تجب على الفور، ومرت لحظة طويلة قبل أن تقول: لقد دبرنا الأمر أنا وغريتا. إنها -والحق يُقال- فتاة مدهشة ولديها آراء كثيرة وأفكار مدهشة.

- وما شكلها؟

– إنها فتاة جميلة طويلة القامة شقراء، وفي مقدورها عمل كل شيء.

– أظن أنني لن أميل إليها.

فضحكَت إيللي وردَّت: بل ستميل إليها وستحبها، أنا واثقة من ذلك؛ فهي تتمتع بذكاء عجيب.

– أنا لا أحب الفتيات اللاتي يتمتعن بذكاء عجيب ولا أحب الشقراوات بالذات، أنا أفضِّل الفتيات الرقيقات ذوات الشعر الأحمر الذي يشبه أوراق الخريف.

– أعتقد أنك تغار من غريتا.

– ربما... أنت تحبينها كثيراً، أليس كذلك؟

– نعم، أنا أحبها جداً؛ فلقد أحدثَت تغييراً كبيراً في مجرى حياتي.

– أهي التي اقترحت عليكِ الذهاب إلى أرض الغجر؟ إنني لأعجب لماذا؛ فليس في ذلك المكان ما يستحق الرؤية. هذا أمر غامض!

– إنه سرنا الخاص.

بدا عليها الارتباك فقلت: أتعنين سرك أنتِ وغريتا، أفصحي لي عنه.

لكنها هزت رأسها وردت: لا؛ يجب أن تكون لي أسراري الخاصة.

- وهل تعلم صاحبتك غريتا أننا نلتقي؟

- إنها تعلم أنني ألتقي بشخص ما وهذا كل شيء. إنها لا تسألني شيئاً، لكنها تعرف أنني سعيدة.

- أصغي إليّ يا يا إيللي، هل تعتقدين أنه لا بد لي أن ألتقي بأهلك أم تراك تفضلين ألا أفعل؟

فردّت على الفور: بالنسبة لأهلي فأنا لا أريدك أن تلتقي بأحد منهم.

- ألستُ أهلاً لذلك؟

- لم أقصد هذا على الإطلاق، ولكنني عنيت أنهم سيثيرون متاعب لا قبل لي بمواجهتها.

- أشعر أحياناً أنه موقف غير شريف مني؛ فهو يضعني في مركز سيء. ألا تظنين ذلك؟

- لقد كبرتُ بما فيه الكفاية كي أختار أصدقائي بنفسي، فأنا أوشكت أن أبلغ الحادية والعشرين. حين أبلغها حتماً سيمكنني أن أختار مَن أشاء من الأصدقاء ولن يستطيع أحدٌ أن يتدخل في حياتي، ولكن سيثير هذا الأمر متاعب جمة الآن، وإذا عرفوا بأمرك فلن يدعوني أذهب إلى أي مكان أريد ولن أستطيع لقاءك. دعنا الآن من هذه الموضوع، دعنا نستمر كما نحن.

وهكذا لم أرَ إيللي لمدة أسبوع. وكنت قد جمعت ما ادّخرته حتى ذلك الوقت (ولم يكن بالمبلغ الكبير) فاشتريت

خاتماً صغيراً من الفضة قدمتُه لها بمناسبة عيد ميلادها، وأحبَّت إيللي هذا الخاتم وبدت في منتهى السعادة وقالت: ما أجمله!

لم تكن تتزيّن بمجوهرات كثيرة، ولم يكن من شك في أن المجوهرات التي تلبسها من الألماس الحقيقي أو الزمرّد أو أي نوع من الأحجار الكريمة الثمينة، ولكنها -مع ذلك- أحبت خاتمي المصنوع من الفضة كثيراً وقالت: سيكون أحب هدية عيد ميلادي إلى قلبي.

ثم جاءتني رسالة عاجلة منها. كانت مسافرة إلى الخارج هي وأسرتها، إلى فرنسا الجنوبية بعد عيد ميلادها على الفور، وكتبَت إليّ تقول: ولكن لا تقلق؛ سنعود بعد أسبوعين أو ثلاثة لكي نسافر إلى أمريكا، وسنلتقي عند عودتي لأن هناك شيئاً خاصاً أريد أن أتحدث فيه معك.

أحسستُ بالقلق والاضطراب لعدم رؤيتي إيللي ولمعرفتي بأنها ذهبت إلى فرنسا. وجاءتني أنباء عن أرض الغجر كذلك، إذ يبدو أنها قد بيعت باتفاق خاص، ولكنني لم أعلم مَن الذي ابتاعها. لا ريب أنها إحدى الشركات؛ فقد قام بعملية الشراء محام من لندن، وقد حاولتُ الحصول على مزيد من المعلومات لكن المحامي المذكور كان حريصاً شديد الحذر، ولم أتكلم معه هو طبعاً ولكنني اتصلت ببعض موظفيه، ولم يطلعني هؤلاء على كل ما أريد فكان كل ما عرفته هو أن عميلاً ثرياً اشتراها كي يستثمرها استثماراً مضموناً حين ترتفع سعر الأرض.

* * *

الفصل السادس

ذهبتُ لزيارة أمي، وحين عدت إلى مسكني وجدت في انتظاري برقية مرسَلة من جنوب فرنسا هذا نصها: "قابلني غداً في منتصف الخامسة في المكان المعتاد".

كان نوع من التغير يبدو على إيللي، وقد أدركتُ ذلك على الفور حين التقينا في منتزه ريجنت كعادتنا. كنا في بداية الأمر كغريبين يلتقيان على غير موعد، واستولى علينا الارتباك شيئاً ما؛ فقد كنتُ أريد أن أبوح لها بشيء من ناحيتي ولم أكن أدري كيف أطرق الموضوع، وأظن أن هذه هي حال أي رجل يفكر في طلب الزواج.

وكانت هي -من ناحيتها- غريبة الأطوار، ولعلها كانت تفكر في رفض طلبي والتخلص مني بطريقة لبقة بارعة بحيث لا تجرح شعوري، ومع ذلك لم يخطر لي هذا الخاطر؛ فقد كنت أفكر في تكوين مستقبلي وكنت واثقاً أن إيللي تحبني، ولكن كان في تصرفاتها شيء أثار حيرتي. لقد كبرت سنة واحدة، ولا أظن أن زيادة سنة واحدة من العمر تجعل أية فتاة مختلفة كل هذا الاختلاف.

كانت قد سافرت إلى جنوب فرنسا هي وأهلها، وأطلعتني على ذلك ثم أردفَت تقول في شيء من الحياء: لقد رأيتُ... لقد رأيتُ ذلك القصر الذي حدثتني عنه، ذلك القصر الذي بناه صديقك المهندس المعماري.

- مَن؟ سانتونيكس؟

- نعم، ذهبنا إلى ذلك القصر ذات يوم وتناولنا الغداء هناك.

- وكيف حدث ذلك؟ هل تعرف زوجة أبيك صاحبه؟

- ديمتري قسطنطين؟ حسناً، إنها لا تعرفه معرفة وثيقة ولكنها التقت به. حسناً، لقد دبَّرَت غريتا الأمر بحيث التقينا به.

فقلتُ وقد ظهرت أمارات الضيق في صوتي: غريتا مرة أخرى؟

- ألم أقل لكَ إنها بارعة جداً في تدبير الأمور؟

- هذا صحيح. إذن فقد دبرَت هذا الأمر لكِ ولزوجة أبيك.

فقاطعتني إيللي: وللعم فرانك كذلك. ثم استطردَت تقول: لا تغضب فأنا أريد أن أُسِرَّ لك شيئاً. لقد عرفتُ الآن ماذا كنتَ تقصد حين حدثتني عن صديقك سانتونيكس؛ فالقصر رائع... إنه يختلف كل الاختلاف عن القصور الأخرى التي رأيتها حتى

اليوم، وأستطيع أن أقول الآن إنه إذا بنى لنا بيتاً فإن هذا البيت سيكون تحفة حقاً.

وهكذا استخدمَت الكلمة على غير وعي منها: «لنا»، وعادت تقول: لقد ذهبتُ إلى الريفيرا وطلبتُ من غريتا أن تدبر الأمر كي نرى البيت الذي وصفته لها؛ إذ كنتُ أريد أن نرسم لنفسَيْنا صورة واضحة عن البيت الذي بنيناه في أحلامنا والذي نريد أن يبنيه لنا رودلف سانتونيكس.

- يسرني أنه أعجبك.

فسألتني تقول: وأنت، ماذا فعلت؟

- ذهبت لزيارة أمي.

- أنت لم تحدثني عنها كثيراً.

- ولماذا أحدثكِ عنها؟

- ألا تحبها؟

أجبت برويّة: لا أعرف؛ أحياناً أظن أنني أحبها! ومهما يكن من أمر فإن المرء ينمو ويكبر ولا يلبث أن يستغني عن أبويه.

- أظنك متعلق بها، وإلا لما بدوتَ متشككاً هكذا وأنت تتحدث عنها.

- إنها تثير خوفي؛ فهي تعرفني خير المعرفة... أعني أنها تعرف أسوأ ما فيّ.

- يجب أن يعرفك شخصٌ ما على حقيقتك على كل حال.

- ماذا تعنين؟

- هناك مثل شائع يقول إن الخادم لا تخفى عليه أسرار سيده، وأعتقد أن كلاً منا يجب أن يكون له خادم يتعرف على عيوبه ويصلحها، ومما لا شك فيه أن من العسير أن يحرص الإنسان دائماً على حسن رأي الناس فيه.

قلت: حسناً، إن لكِ آراء غريبة يا إيللي. ثم أخذتُ يدها وسألتها قائلاً: هل تعرفين كل شيء عني؟

- أعتقد ذلك.

نطقَت بهاتين الكلمتين ببساطة وهدوء فقلت: ولكني لم أحدثك بالكثير عن نفسي. ثم استطردتُ: المهم الآن هو ماذا نفعل؟ فلن يكون الأمر هيناً يا إيللي؛ فأنتِ تعرفين جيداً مَن أنا وماذا فعلتُ حتى اليوم وما نوع الحياة التي أحياها... لقد ذهبتُ لزيارة أمي ولرؤية الشارع الكئيب الذي كنا نعيش فيه. إن دنيانا دنيا أخرى غير التي تعيشين فيها يا إيللي، ولا أعرف كيف يمكننا الجمع بينهما!

- تستطيع أن تقدمني لأمك.

- نعم، أستطيع أن أفعل ذلك، ولكنني أفضِّل ألا أفعل. أظن أن لقولي هذا أسوأ الوقع وأقساه في نفسك، ولكنكِ لا ريب تعرفين أنه يجب أن نعيش معاً حياة غريبة حقاً، حياة غير تلك التي اعتدتِ عليها وغير تلك التي اعتدتُ عليها أنا الآخر،

ستكون حياة جديدة تستند على أسس جديدة من التفاهم، تفاهم يذوب فيه فقري وجهلي في ثقافتك وثرائك ومركزك الاجتماعي. سيعتقد أصدقاؤك أنكِ مغرورة في حين سيعتقد أصدقائي أنني جلف فقط، فماذا نفعل يا إيللي؟

- سأقول لك ماذا نفعل يا مايك: سنعيش في بيت في أرض الغجر، بيت الأحلام الذي سيبنيه لنا صديقك سانتونيكس، هذا ما سوف نفعل. ثم أردفَت تقول: ولكننا سنتزوج أولاً، أليس هذا ما تريد؟

- بلى، إذا كنتِ واثقة من شعورك نحوي.

- حسناً، سنتزوج في الأسبوع المقبل إذن؛ فلقد بلغتُ الآن سن الرشد وأستطيع أن أفعل ما أريد، وهذا هو كل الاختلاف، وأظنك على حق فيما يتعلق بالأهل، فأنا لن أذكر شيئاً لأهلي وعليك أنت ألاّ تذكر شيئاً لأمك. لن نذكر لهم شيئاً وإنما سنضعهم أمام الأمر الواقع فيما بعد، ولا يهمنا ما قد يحدث عندئذ.

- هذا رائع، رائع يا إيللي، ولكن هناك شيئاً آخر يعز عليّ أن أحدثك عنه الآن، فنحن لن نستطيع الإقامة في أراضي الغجر. سنبني لنا بيتاً لكن في موقع آخر، لأن أراضي الغجر بيعت.

- أعرف أنها بيعت.

وأردفَت تقول ضاحكة: أنت لا تفهم يا مايك؛ أنا التي اشتريتها!

الفصل السابع

جلسنا هناك، فوق العشب بجوار البركة، وكان بعض الناس يجلسون هنا وهناك ولكننا لم نهتم، بل حتى لم نشعر بهم؛ فقد كنا عاشقين سعيدين نتحدث عن المستقبل ونتبادل النظرات في صمت من غير أن ننطق بكلمة، وقالت أخيراً: مايك، ثمة شيء لا بد أن أحدثك عنه، شيء يتعلق بي.

- لا حاجة بكِ إلى ذلك، لا حاجة بك إلى أن تحدثيني بأي شيء.

- ولكن يجب أن أقول لك، كان يجب أن أقول لك ذلك منذ وقت طويل ولكنني لم أشأ لأنني... لأنه خطر لي أن قولي هذا قد يبعدك عني؛ فهو يتعلق بأراضي الغجر.

- هل اشتريتِها حقاً؟ ولكن كيف تم لك ذلك؟

- كلفتُ بعض المحامين بشرائها، وهي طريقة عادية؛ طريقة طيبة للاستثمار كما تعرف؛ فالأرض سيرتفع ثمنها، وقد اغتبط المحامون بهذه العملية حقاً.

- أنتِ تتكلمين كما يتكلم رجال الأعمال تماماً.

- دعنا من الأعمال الآن ولنعد إلى موضوعنا الأول، لقد قلتُ لكَ ما أريد بطريقة ما ولكنني لا أحسبك قد وعيتَ ما قلتُ لك.

قلت: لا أريد أن أعرف. وارتفع صوتي إلى حد الصراخ وأنا أستطرد قائلاً: لا تقولي شيئاً، لا أريد أن أعرف شيئاً عما حدث قبل ذلك ولا أريد أن أعرف إذا كنتِ قد أحببتِ أحداً غيري أو...

فقاطعتني قائلة: لا شيء من هذا القبيل، لم أعلم أن هذا هو ما يجول في خاطرك وما تخشاه. لا، ليس هناك أي شيء من هذا، ليست لي أية أسرار غرامية ولا يوجد في حياتي رجل آخر غيرك، ولكن الحقيقة هي أنني... حسناً، أنا ثرية.

- أعرف؛ فقد سبق أن أطلعتني على هذا الأمر.

فعادت تقول وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة: نعم، وقد وصفتني إذ ذاك بأنني فتاة غنية مسكينة. ولكن الأمر غير ذلك؛ فجدي كان ثرياً جداً، وهكذا ورث أبي ثروة كبيرة، وحين مات فجأة ورثتُ أنا كل شيء، وأنا الآن واحدة من أغنى النساء يا مايك.

- يا إلهي! لم أكن أعرف. نعم، أنتِ على حق، لم أكن أعرف أن الأمر بهذا الصورة.

- لم أُرِد أن تعرف، فلم أشأ أن أخبرك. وهذا هو السبب في أنني كنتُ خائفة حين ذكرت لك اسمي «فينيلا جيوتمان»، لقد خفتُ أن تعرفه ولهذا غيرته ونطقت به جودمان.

- نعم، لقد سمعتُ اسم جيوتمان ذات يوم، ولكن لا أظن -مع ذلك- أنني كنت سأعرف؛ فهناك أشخاص كثيرون تشابه أسماؤهم.

- ولهذا أخفيتُ عنكَ حقيقة أمري طوال هذا الوقت وتجنبت الحديث عنه؛ كان هناك مخبرون يتولون حراستي وحمايتي ولم يكن مسموحاً لأي شاب بالدنو مني ومخاطبتي. لا يمكنك أن تتصور الحياة الرهيبة المرعبة التي كنت أحياها، كنتُ أشبه بالسجينة بين القضبان، ولكن انتهى كل شيء الآن، وإذا كنتَ لا تبالي حقاً...

فقلت مقاطعاً: أنا لا أبالي طبعاً؛ فأنتِ لا يمكن أن تكوني غنية جداً بالنسبة لي.

وضحكنا معاً وقالت: إن ما أحبه فيك هو أنك تستطيع أن تكون طبيعياً في كل شيء.

- أعتقد أنكِ تدفعين ضرائب باهظة على هذه الثروة، أليس كذلك؟ فهذا سبب من الأسباب الطريفة التي تجعلك تبدين مثلي تقريباً؛ فكل الذي أكتسبه يمضي إلى جيبي ولا يستطيع أي أحد أن يستقطع منه شيئاً ما.

قالت إيللي: سيكون لنا بيتنا... بيتنا، في أراضي الغجر.

وسرَت في بدنها رعشة فأسرعتُ أقول: هل تشعرين بالبرد يا عزيزتي؟

ورفعتُ عينيّ نحو الشمس وأنا أقول ذلك، ولكنها أجابتني قائلة: لا.

كان الجو حاراً حقاً وأشعة الشمس تملأ المكان. وعادت إيللي تقول: هذه المرأة الغجرية التي التقينا بها هنا في تلك الليلة.

- آه، إنها امرأة مخبولة فلا تفكري في أمرها.

- أتظن أن هناك لعنة على هذه الأراضي حقاً؟

- لا أظن. إنها عادة الغجر دائماً؛ فهم يتشدقون بأن اللعنة تحل دائماً على المكان الذي يُقصَون عنه.

- هل تعرف الكثير عن الغجر يا مايك؟

أجبتُ بصدق: لا أعرف عنهم شيئاً أبداً، ويستطيع صديقي سانتونيكس أن يبني لنا البيت في أي موضع نختاره.

- لا؛ أريد البيت هنا، فهنا رأيتك لأول مرة وأنت تمشي في هذا الطريق فجأة، ولم تلبث أن رأيتني وتسمرتَ في مكانك ورحتَ تحملق فيّ... لن أنسى هذا أبداً.

- وأنا أيضاً لن أنساه.

- لهذا سنبني بيتنا هنا، وسيبنيه لنا صديقك سانتونيكس.

قلتُ في غصة غير مريحة: أرجو أن يكون ما يزال على قيد الحياة؛ فقد كان مريضاً جداً حين رأيته آخر مرة.

- إنه على قيد الحياة؛ فقد ذهبت لزيارته.

- أنتِ تثيرين دهشتي من دقيقة لأخرى يا إيللي بما تفعلين.

- إنه رجل مدهش، ولكنه مع ذلك مخيف!

- هل أخافك؟

- نعم، لقد أخافني كثيراً لسبب ما.

- هل حدثتِه عنا؟

- نعم؛ قلتُ له كل شيء عنا وعن أراضي الغجر وعن البيت الذي تريد أن نبنيه.

- وبماذا أجاب؟

- سألني إذا كنت أعلم ما أنا مقدمة عليه بزواجي منك؛ فأجبته بالإيجاب طبعاً.

- ثم؟

- قال إنه يَعجَب إذا كنتَ أنت تعلم ذلك.

- أنا أعرف تماماً ما أنا فاعل.

قالت إيللي: هل نتزوج يوم الثلاثاء المقبل؟ إن يوم الثلاثاء يوم جميل من أيام الأسبوع.

- ولن يكون هناك أحد غيرنا.

- فيما عدا غريتا.

فصحتُ أقول: فلتذهب غريتا إلى الجحيم، إنها لن تحضر زواجنا، لن يكون هناك غيري وغيرك ويمكننا أن نستدعي شاهدين من بين المارة.

وأظن حقاً أنني -إذا عدت إلى الوراء- أجد أن هذا اليوم كان أسعد يوم في حياتي!

* * *

الفصل الثامن

وهكذا تزوجنا أنا وإيللي. أعلم تماماً أن الأمر يبدو مقتضباً وأنا أقول ذلك، ولكن هكذا تم كل شيء حقاً؛ فقد قررنا أن نتزوج وتزوجنا. وكان ذلك جزءاً من الخطة المرسومة، ولكنه لم يكن -مع ذلك- خاتمة رومانسية لقصة حب جميلة: «وهكذا تزوجا وعاشا في سعادة وهناء إلى أن جاءهما هادم اللذات».

كان الأمر كله بسيطاً إلى حد كبير حقاً؛ فإيللي دفعها حبها للتحرر إلى أن تخفي كل شيء بمهارة فائقة، وكانت غريتا ذات نفع كبير لنا حين قامت بكل الإجراءات الضرورية لذلك فدبرَت كل شيء ببراعة كبيرة، واستطعتُ أن أتحقق بأسرع ما يمكن من أن أحداً لم يكن يهتم لا بإيللي ولا بما تفعل؛ فلم يكن لزوجة أبيها من مشاغل إلا الاهتمام بحياتها الاجتماعية والغرامية، وإذا ما رفضت إيللي مرافقتها إلى أي مكان من المعمورة فلم يكن هناك ما يرغمها على ذلك، خاصة وأنها محاطة بحشد من المربيات والوصيفات اللاتي يعنين بها. والآن وقد حصلَت على ثروتها الطائلة فلم يكن لأي فرد من أفراد

العائلة أي سلطان عليها، وأصبح في مقدورها أن تنفق منها ما تشاء وأن تمضي حيث تشاء.

أعتقد أن جميع أفراد الأسرة كانوا يعتبرون غريتا أداة رائعة يركنون إليها ويثقون فيها، والحق أن غريتا كانت فتاة عجيبة تتمتع بكفاءة عالية، ففي استطاعتها أن تقوم بكل الإجراءات والتدابير اللازمة بمقدرة فائقة. كانت كبيرة النفع وتعرف كيف تحصل على ثقة الجميع؛ فتفتن زوجة الأب والعم والأقارب القلائل الذين يحومون حول إيللي، وكان لهذه الأخيرة ثلاثة من رجال القانون على الأقل يعملون طبقاً لأوامرها ورغباتها، وكانت تتصل بكل منهم من وقت لآخر.

كان لها حاشية كبيرة من رجال المال والقانون والأوصياء، وكانت هذه دنيا جديدة بالنسبة لي لم يسبق لي أن عرفتها من قبل، ولم يخطر لإيللي طبعاً أنه كان يجب أن تطلعني على شيء منها لأنها نمت وترعرعت في هذا الوسط بحيث خطر لها أن الجميع لا بد وأنهم يعرفون كل صغيرة وكبيرة عنه.

والواقع أن إلقاء لمحات خاطفة على خصوصيات حياة الآخرين كان الشيء الوحيد الذي كنا نستمتع به أكثر من غيره في المرحلة الأولى من زواجنا، ولأتكلم بصراحة (فأنا أحب الصراحة دائماً لأنها أمثل طريقة تجعلني أفهم حياتي الجديدة) فأقول إن الفقير لا يعرف حقاً كيف يعيش الأغنياء، والأغنياء لا يعرفون بدورهم كيف يعيش الفقراء. وكان في هذا الأمر وحده مبعث استمتاع كبير لنا نحن الاثنين؛ فقد قلت ذات مرة في شيء من الارتباك: اسمعي يا إيللي، هل ستكون هناك دسائس

ومؤامرات بخصوص هذا؟ أعني بخصوص زواجنا؟

فكرت إيللي بشيء من عدم الاكتراث ثم قالت: نعم، سيكون الأمر فظيعاً جداً. ثم أردفَت تقول بعد لحظة: أرجو ألاّ تعبأ بذلك.

- أنا لا أعبأ. ولماذا أعبأ؟ ولكن أنتِ، هل سيضايقونك؟

- أنا أتوقع ذلك، ولكن لا داعي لأن تهتم بهم، المهم هو أنهم لا يستطيعون عمل شيء.

- ولكن ألن يحاولوا؟

- بل سيحاولون طبعاً. ثم أردفَت تقول في تفكير: سيحاولون شراءك طبعاً.

- شرائي؟

قالت: لِمَ اشمئزازك هذا؟ وارتسمت على شفتيها ابتسامة سعيدة وأردفت تقول: لن يكون الأمر كما أقول تماماً، ولكن لعلك تعلم ما حدث لميني تومبسون؟

- ميني تومبسون؟ أليست هي تلك التي يلقبونها بملكة البترول؟

- بلى، إنها هي. لقد هربت وتزوجت بأحد حرس الشواطئ.

قلتُ في شيء من الضيق: أصغي إليّ يا إيللي، لقد عملت كحارس شواطئ ذات مرة وكان ذلك في ليتل هامبتون.

- حقاً؟ هذا أمر مضحك. هل قضيتَ بهذا العمل فترة طويلة؟

- لا، لم أقضِ فيه غير صيف واحد.

- آمل ألا يكون هذا العمل قد ضايقك.

- لكن ماذا حدث لميني تومبسون؟

- اضطر أهلها إلى دفع مِئتَي ألف دولار لزوجها لأنه لم يرضَ بأقل من ذلك... وكانت ميني شديدة التعلق به.

- أنتِ تثيرين دهشتي يا إيللي، فأنا لم أحصل على زوجة فحسب بل حصلت على زوجة تمثل رأسمال كبير من السهل استبداله في أي وقت.

- هذا صحيح. اتصل بأي محام معروف وتحدث معه بصراحة فيتخذ إجراءات الطلاق ويحدد قيمة النفقة. لقد تزوجت زوجة أبي أربع مرات، وقد حصلَت على مبالغ كبيرة بهذه الطريقة... مايك، لا تنظر إليّ هكذا.

الشيء المضحك حقاً هو أنني صُدمتُ وجُرحتُ في كبريائي وشعرت بنفور كبير من نساء المجتمع الغني، ولكن إيللي بدت بسيطة طاهرة الذيل، ولست أدري كيف أمكنها تقبل مثل هذه الأمور بهذه البساطة كما لو كانت أموراً عادية. لقد كنت أعرف حق المعرفة طبيعة المخلوقة التي تزوجتها، كنت أعرف بساطتها وصدق أحاسيسها ورقتها ودماثة خلقها، وهي لم تكن تعرف الكثير عن دنياي، دنيا البحث عن عمل

واستجدائه بشتى الطرق، دنيا السباق والمخدرات وأخطار الحياة، دنيا المغامرين والأفّاقين الذين أعرفهم جيداً بحكم احتكاكي بهم.

كانت تجد كل المتعة في الإصغاء إلى دقائق حياتي، كما كنتُ أستمتع -بدوري- بالإصغاء إلى دقائق حياتها. كان يُخيَّل لكل منا أنه يكتشف بلداً غريباً لم يطرقه من قبل. وكلما رجعتُ بالذاكرة إلى الوراء أرى أن أيامي الأولى مع إيللي كانت سعيدة ورائعة، وقد قبلتُ سعادتي في ذلك الوقت كأمر مفروض، وكذلك فعلت هي!

وكنا قد تزوجنا في أحد مكاتب التسجيل في بلايموث حيث لم يكن اسم جيوتمان شائعاً في إنجلترا؛ فلم يعرف أي أحد (سواء من الصحفيين أو من غيرهم) أي شيء عنا، ولم يعرف أحد أن وريثة جيوتمان في إنجلترا، إلا أن الجرائد نشرت نبذة قصيرة تقول إنها في إيطاليا في يخت أحد الأثرياء المعروفين.

وهكذا تزوجنا في مكتب التسجيل كما سبق القول، وشهد على زواجنا الموظف الذي يدير المكتب والموظفة التي تكتب على الآلة الكاتبة، وألقى علينا ذلك الموظف خطبة صغيرة في مسؤوليات الحياة الزوجية وتمنى لنا السعادة والتوفيق، وانصرفنا من المكتب بعد أن أصبحنا زوجين: السيد والسيدة مايكل روجرز.

قضينا أسبوعاً في فندق يشرف على البحر ثم سافرنا إلى الخارج وقضينا ثلاثة أسابيع نتنقل حيث يحلو لنا، ننفق عن

سعة وبغير حساب؛ فسافرنا إلى اليونان وذهبنا إلى فرنسا وزرنا البندقية، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الريفيرا... وبينما كنا نستمتع بوقتنا هكذا كانت غريتا -كما ذكرت إيللي فيما بعد- لا تزال في إنجلترا تقوم بالدور المرسوم لها؛ فتنتقل من مكان إلى آخر وتبعث بالرسائل والبطاقات التي تركتها لها إيللي من الأماكن المختلفة التي تذهب إليها.

قالت إيللي: لا شك أنه سيأتي يوم ينكشف فيه كل شيء، وسيقع الجميع علينا كما يقع سرب من الطيور، ولكن في مقدورنا أن نستمتع بحياتنا إلى أن يقع ذلك.

- وغريتا؟ ألن يحقدوا عليها حين يعرفون كل شيء؟

- بلى، ولكنها لن تعبأ بهم، ستعرف كيف تدافع عن نفسها.

- ألن يقفوا في طريقها ويَحُولون بينها وبين الحصول على عمل آخر؟

- ولماذا تبحث عن عمل آخر؟ ستأتي للإقامة معنا.

- لا.

- ماذا تعني يا مايك؟

- لا أريد أن يقيم معنا أحد.

- ولكن غريتا لن تزعجنا وستكون ذات نفع كبير لنا. وفي الحقيقة أنا لا أعرف ماذا كنت أستطيع أن أفعل بدونها؛ فهي تدبر كل شيء بمهارة كبيرة.

قطبت حاجبي وقلت: لا أظن أنني سأميل إليها، أنا أريد أن نكون في بيتنا، بيت أحلامنا وحدنا، لا يشاركنا فيه أحد.

- نعم، أنا أعرف ماذا تعني، ومع ذلك...

وترددَت، ثم استطردَت أخيراً تقول: أعني سيكون الأمر شاقاً بالنسبة لغريتا؛ فهي لن تجد مكاناً تقيم فيه. لقد قضت السنوات الأربع الأخيرة معي، ثم لا تنسَ أنها كانت أكبر عون لنا في زواجنا.

- لا أريدها أن تتدخل في حياتنا طوال الوقت.

- ولكنها لن تزعجنا يا مايك، أنت لم تلتقِ بها حتى الآن.

- نعم، أعلم أنني لم ألتقِ بها، ولكن لا دخل لهذا بشعوري نحوها. كل ما هنالك هو أنني أريد أن نعيش وحدنا يا إيللي.

قالت في رفق: أيها الحبيب مايك...

وتركنا الموضوع مؤقتاً.

* * *

الفصل التاسع

كان ذلك في اليوم التالي على ما أعتقد، وكنا في أثينا، وبغتة -وفيما نحن نصعد درجات الأكروبول- التقت إيللي ببعض معارفها. كانوا قد هبطوا إلى البر من إحدى السفن السياحية ثم انفصلت عنهم امرأة في نحو الخامسة والثلاثين واندفعت نحو إيللي وهي تهتف قائلة: مَن أرى؟ ما كنتُ أتوقع هذا! إيللي جيوتمان؟ ماذا تفعلين هنا؟ يا لها من مفاجأة! هل تشتركين في رحلة سياحية؟

أجابت إيللي: لا، ولكنني أقيم هنا منذ أيام.

- عجباً، يسرني أنني رأيتك حقاً. وكيف حال كورا؟ أهي معك؟

- لا، إنها في سالزبورج.

- حسناً، حسناً.

وإذ تحولَت المرأة ونظرت إليّ مستفهمة قالت إيللي في هدوء: أقدم لكِ السيد روجرز... السيدة بنتجتون.

- كيف حالك يا سيد روجرز؟ هل ستبقين هنا كثيراً؟

- لا، سأرحل غداً.

- معذرة يا عزيزتي؛ يجب أن أذهب الآن وإلا فقدت جماعتي، ثم إنني أريد أن أسمع إيضاحات الدليل... إنه لأمر شاق إلى درجة أنني أشعر بالإعياء والإرهاق آخر اليوم. أليست هناك فرصة للقائنا وتناول شيء من الشراب؟

- ليس اليوم؛ فنحن ذاهبان للنزهة.

أسرعت السيدة بنتجتون بالانصراف لكي تلحق بجماعتها، وكنا نصعد درجات السلم قبل أن نلتقي بها فتحولنا وهبطنا وقالت إيللي: حسناً، هذا يحسم المسألة.

- أية مسألة؟

لم تنطق إيللي على الفور، بل لزمت الصمت دقيقة أو دقيقتين ثم قالت: يجب أن أكتب الليلة.

- لمَن؟

- لكورا وللعم فرانك، وأظن أنه يجب أن أكتب للعم أندرو كذلك.

- ومَن هو العم أندرو؟ لم أسمعكِ تذكرين هذا الاسم قبل اليوم.

- إنه أندرو ليبنكوت، وهو ليس عمي في الواقع ولكنه

الوصي عليّ أو القيم، أو سِّمه ما تشاء. إنه محام، محام معروف.

- وماذا تنوين أن تقولي لهم؟

- سأقول لهم إنني تزوجت؛ فأنا لم أستطع أن أقول للسيدة بنتجتون بغتة: "دعيني أقدم لكِ زوجي"، فلو أنني فعلت لأُصيبت بصدمة كبيرة وبدهشة أكبر ولَصاحَت: ولكنني لم أسمع أنكِ تزوجت! فكيف حدث هذا؟! حدثيني بالأمر يا عزيزتي... إلخ. من الأفضل أن تكون زوجة أبي والعم أندرو أول مَن يعلما.

- وماذا سيقولون أو ماذا سيفعلون؟

أجابت في جمود: سيثورون ويهيجون، ولكن لا يهمني ذلك؛ فأنا أظنهم من الحكمة بحيث يدركون. يجب أن يتم بيننا لقاء، نستطيع أن نذهب إلى نيويورك.

وسددَت بصرها إليّ في تساؤل قائلة: هل يروق لك ذلك؟

- لا، لا يروق لي ذلك أبداً.

- عليهم أن يأتوا إلى لندن إذن، جميعهم أو بعضهم. لا أدري إذا كان ذلك يروق لك أكثر؟

- بل إنه لا يروق لي كذلك؛ فأنا أريد أن أكون معكِ، أريد أن أرى بيتنا يعلو حجراً فوق حجر بمجرد أن يصل سانتونيكس هناك.

- سوف يتم ذلك؛ فلن يأخذ منا لقاؤنا بالأسرة وقتاً طويلاً. وعلى كل حال فمن المحتمل أن نلتقي بهم جميعاً، ومن المحتمل أن نستقل الطائرة إلى أمريكا، كما أنه من المحتمل أن يأتوا هم إلينا. ثم قالت بتفكير: وهناك أمك...

- بالله عليك يا إيللي، لا تحاولي تدبير أي لقاء بين أمك ببذخها وترفها وأمي بفقرها المدقع. ماذا تتوقعين أن تقول كل منهما للأخرى؟

- لو أن كورا كانت أمي فعلاً فلا ريب أن كلاً منهما كانت ستجد الكثير لكي تقوله للأخرى. أرجو ألا تزعجكَ مسألة الفوارق الطبقية.

- مهما يكن من أمر فأنا أرجو أن تَدَعي أمي وشأنها وألا تقحميها في اجتماع أسرتك.

- لم أقترح إقحام أي شخص في أي شيء، ولكنني أعتقد يا مايك أنه يجب أن أمضي لزيارة أمك عند عودتنا لإنجلترا.

فانفجرتُ أقول: كلا.

نظرت إليّ وقد جفلت فقالت: ولِمَ لا يا مايك؟ ألا ترى أنني إذا لم أذهب لزيارتها فإن ذلك سيكون وقاحة مني؟ هل قلتَ لها إنك تزوجت؟

- لم أقل لها ذلك بعد.

- ولماذا؟

لم أنطق، فعادت تقول: أليس من الأفضل أن تقول لها

إننا تزوجنا أو ترافقني لزيارتها حين نعود لإنجلترا؟

قلت من جديد: كلا.

تكلمتُ بهدوء هذه المرة ولكنني كنت بادي التحفظ، فقالت إيللي في بطء: ألا تريد أن ألتقي بها؟

كانت هذه هي الحقيقة طبعاً، وأحسب أنها كانت من الوضوح بحيث تكفي، ولكنها كانت آخر شيء أستطيع توضيحه. ولم أرَ كيف أوضح لها ذلك فقلت: أرجوك يا إيللي، لا تذهبي لزيارة أمي.

- لا زلت أعتقد أنه سيكون أمراً غير لائق إذا لم أذهب.

- لا، ليس الأمر كما تقولين، أنا أكثر دراية بأمي وأعرفها أكثر منك. إنها مختلة!

- ولكن يجب أن تخبرها بأنك تزوجت.

- حسناً، سأفعل.

وخطر لي أن أسهل شيء هو أن أكتب لأمي وأنا لا أزال في الخارج. وفي هذه الليلة وفيما كانت إيللي تكتب للعم أندرو وللعم فرانك ولزوجة أبيها كورا فان ستوبفيزانت كتبتُ أنا الآخر رسالة لأمي، وكانت رسالة قصيرة هذا نصها:

أمي العزيزة،

كان يجب أن أخبركِ بذلك قبل اليوم، ولكن راودني شيء من القلق منعني من الكتابة إليك.

لقد تزوجتُ منذ ثلاثة أسابيع، جاء الأمر فجأة، وهي فتاة جميلة ومليحة جداً وعلى جانب كبير من الثراء، وهذا وحده يسبب لي بعض الارتباك. ستبني لنا بيتاً في مكان ما في الريف، ولكننا نطوف حالياً في أوروبا.

تمنياتي لك.

ابنك مايك

وكانت نتيجة مكاتباتنا تلك الليلة مختلفة بعض الشيء؛ فقد لزمَت أمي الصمت أسبوعاً كاملاً قبل أن ترد عليّ وترسل إليّ خطاباً ينم عمّا يعتمل في داخلها، فقد كتبَت تقول:

عزيزي مايك،

سرني خطابك، وأرجو أن تكون سعيداً جداً.

أمك التي تحبك

* * *

وكما تنبأَت إيللي، نزلت بنا المتاعب نزول الصاعقة وأخذتنا في شبكة بغيضة متداخلة من المشاكل؛ فقد دهمنا الصحفيون الذين سعوا وراء أخبار زواجنا الرومانسي، ونشرت الصحف المقالات عن وريثة جيوتمان وهروبها الخيالي، وجاءتنا رسائل كثيرة من المصارف والمحامين.

وتم أخيراً لقاء رسمي، التقينا قبله بسانتونيكس بخصوص أراضي الغجر ففحصنا الرسومات وتناقشنا في بعض الأمور، وبعد أن فرغنا من هذه الناحية عدنا إلى لندن ونزلنا في جناح

كبير بفندق كلاريدج. وتأهبنا -إذا جاز لنا القول- لمواجهة الأعداء!

كان أندرو ليبنكوت أول مَن أتى، وكان شيخاً متقدماً في السن جاف الطباع شديد الأناقة، طويل القامة نحيل العود دمث الأخلاق، وكان أن اتصل بنا هاتفياً فتواعدنا على اللقاء في الثانية عشرة. وكانت إيللي شديدة الانفعال، وإن كانت قد حاولت أن تخفي انفعالها.

طبع السيد ليبنكوت قبلة على كل من وجنتي إيللي، ثم بسط يده إليها وقال وهو يبتسم ابتسامة مهذبة: حسناً يا عزيزتي إيللي، أنتِ رائعة، بل أقول: أنتِ متألقة.

- كيف حالك أيها العم أندرو؟ كيف أتيتَ؟ بالطائرة؟

- لا، أتيتُ على ظهر الباخرة الملكة ماري، ولقد كانت رحلة ممتعة. أهذا زوجك؟

- نعم، هذا هو مايك.

وحاولتُ إثبات وجودي فقلت: كيف حالكَ يا سيدي؟

ثم سألته إن كان يريد كأساً من الشراب، ولكنه رفض في رقة وجلس في مقعد وثير وراح ينقل عينيه بيني وبين إيللي وهو لا يزال يبتسم، ثم قال: حسناً، لقد تسببتما في كثير من المشاكل، وهي مشاكل رومانسية على كل حال.

قالت إيللي: أنا آسفة، آسفة حقاً.

فقال ليبنكوت في جفاء: أأنت آسفة حقاً؟

- حسبت أن هذه أفضل طريقة.

- لا أوافقك على هذا الرأي يا عزيزتي.

- ولكنكَ تعلم -أيها العم أندرو- أنني لو كنت سلكتُ الطريقة الأخرى للقيت اعتراضاً كبيراً.

- ولماذا تلقين مثل هذه المعارضة الكبيرة؟

- أنت تعرفهم جيداً... وأنت أيضاً كنت ستقف ضدي. لقد جاءني خطابان من كورا، واحد بالأمس وآخر صباح اليوم.

- يجب أن تتوقعي شيئاً من الصخب والثورة يا عزيزتي؛ فهذا أمر طبيعي في مثل هذه المناسبة.

- ولكنني حرة، أتزوج مَن أشاء وأين أشاء.

- هذا رأيك أنتِ يا عزيزتي، ولكن ما مِن امرأة في العالم تُقدِم على هذا العمل.

- الحق أنني وفّرتُ كثيراً من المتاعب للكثيرين.

- يمكننا أن نقرَّ بذلك.

- وهي الحقيقة، أليس كذلك؟

- بلى، لقد تسببتِ في خيبة أمل كبيرة، وعاونكِ في ذلك شخص كان من الأفضل له ألا يفعل.

اصطبغ وجهها وقالت: هل تعني غريتا؟ لقد امتثلَت لإرادتي، هل هم حاقدون عليها بسبب ذلك؟

- طبعاً؛ فما كان لكِ أو لها أن تتوقعا غير ذلك، فقد كانت تشغل مركزاً يتطلب ثقة خاصة.

- أنا راشدة وأستطيع عمل ما أريد.

- أنا أتحدث عن تلك الفترة التي لم تكوني قد بلغتِ سن الرشد خلالها بعد؛ لأن الخدعة بدأت منذ ذلك الوقت، أليس كذلك؟

قلت: لا يجب أن تلوم إيللي يا سيدي، ففي ذلك الوقت كنتُ أجهل كل شيء عن طريقة معيشتها، ونظراً إلى أن أفراد الأسرة كلهم كانوا في بلاد أخرى فلم يكن من السهل عليّ الاتصال بهم.

قال السيد ليبنكوت: أنا أعلم أن غريتا أرسلت بعض الرسائل إلى السيدة ستويفيزانت وزودتها بمعلومات غير صحيحة طبقاً لتعليمات إيللي، وقامت -إذا جاز لي القول- بعمل له فعاليته. هل التقيتَ بغريتا أندرسون يا مايكل؟ أستطيع أن أدعوك بمايكل ما دمتَ قد أصبحتَ زوجاً لإيللي.

- طبعاً باستطاعتكَ أن تدعوني باسم مايكل. لا، أنا لم ألتقِ بالآنسة أندرسون.

- أحقاً؟ إنه أمر يثير الدهشة!

ونظر إليّ مندهشاً ثم قال: كنت أعتقد أنها حضرت زواجكما!

فقالت إيللي: لا، غريتا لم تكن حاضرة.

وألقت إليّ نظرة عتاب في حين بقيتُ مكاني وأنا لا أشعر بأي ارتياح. كانت عينا السيد ليبنكوت لا تزالان تحدقان فيّ بحيث أحسستُ بالارتباك، وبدا كأنه يريد قول المزيد، غير أنه لم يلبث أن غيّر رأيه وقال بعد لحظة أو لحظتين: أظن أنه لا بد لكَ أنت وإيللي أن تتحملا توبيخ أفراد الأسرة ونقدها.

قالت إيللي: أظنهم سينزلون عليّ جميعاً نزول الصاعقة.

قال السيد ليبنكوت: هذا أمر كبير الاحتمال، ومن ناحيتي أنا فقد مهدتُ لكما الطريق.

فقالت وهي ترميه بابتسامة: إذن فأنت في صفنا أيها العم أندرو؟

- من العسير جداً أن يعترض محام نابه على مثل هذا الأمر؛ فقد علمتني التجارب أن من الحكمة قبول الأمر الواقع. لقد وقع كل منكما في حب الآخر وتزوجتما، وأعرف -يا إيللي- أنكِ اشتريتِ قطعة من الأرض في جنوب إنجلترا وأنكما تشيِّدان عليها بيتاً للإقامة فيه.

فقلتُ بشيء من الغضب: نعم، إننا نريد أن نقيم في إنجلترا، فهل لديكَ أي اعتراض على هذا؟ لقد تزوجَت إيللي

بي، وبزواجها اكتسبَت الجنسية الإنجليزية وليس هناك ما يمنعها من الإقامة معي في إنجلترا.

– ليس هناك ما يمنعها من ذلك على الإطلاق، ليس هناك ما يمنع فينيلا من الإقامة في البلد الذي تختاره وأن يكون لها بيت في أكثر من دولة. إن لكِ بيتاً في ناسو كما تعلمين يا إيللي.

– كنتُ أعتقد أنه ملك لكورا؛ فهي تتصرف دائماً كما لو كان ملكاً لها.

– بل أنتِ المالكة الشرعية له، كما تملكين كذلك بيتاً في لونج آيلاند ولكِ أن تقيمي فيه في أي وقت تشائين. كما تملكين عدداً كبيراً من حقول البترول في الغرب.

كان يتكلم بصوت مهذب رقيق، ولكنني أحسستُ بأن كلماته الأخيرة كانت موجَّهة إليّ بطريقة غير مباشرة، فهل كانت هذه طريقته لخلق الشقاق بيني وبينها؟ لم أكن واثقاً من ذلك. ومهما كان من أمره، فما كان جميلاً منه أن يذكر لرجل فقير إن زوجته تملك في أنحاء المعمورة قصوراً شتى وأنها على جانب كبير من الثراء، ولولا لهجته لاعتقدتُ أنه يحصر أملاكها وثروتها عامداً؛ لأنني إذا كنتُ أسعى وراء النفقة فإن طريقته هذه ستجعلني أظهر على حقيقتي ويسيل لعابي.

ثم قال يخاطبها: لقد أحضرتُ معي بعض الأوراق والمستندات القانونية، يجب أن ندرسها معاً وأن توقعي على الكثير منها.

- بالطبع أيها العم أندرو، في أي وقت تشاء.

- على كل حال لا داعي للعجلة؛ فلديّ أعمال أخرى في لندن وسأبقى هنا نحو عشرة أيام أخرى.

عشرة أيام؟ إنها مدة طويلة! وددتُ ألاّ يبقى السيد ليبنكوت هذه الأيام العشرة فهو لم يُبدِ نحوي ما يكفي من الود، وإن كان قد أبدى إشارة يُفهَم منها أنه يتحفظ في حكمه على بعض النقاط، إلا إنني تساءلت في تلك اللحظة: هل هو عدوي حقاً؟ وإذا كان كذلك فهو ليس من نوع الرجال الذين يظهرون عواطفهم.

واستطرد يقول: حسناً، الآن وقد التقينا وتفاهمنا بخصوص المستقبل -إذا جاز لنا هذا القول- فأنا أحب تبادل الحديث مع زوجك.

فقالت إيللي: باستطاعتك التحدث معه هنا.

نطقَت بعبارتها هذه في انفعال وحدّة، فوضعتُ يدي على ذراعها وقلت: لا تخافي يا عزيزتي، أنتِ تبدين كالدجاجة الأم التي تخاف على فراخها.

ومضيتُ بها برفق نحو الباب الذي يؤدّي إلى الغرفة الأخرى وأنا أقول: كل ما في الأمر أن العم أندرو يريد أن يُكوِّن عني رأياً، وهذا من حقه.

ودفعتها من خلال الباب ثم أغلقت الباب وعدتُ إلى

مكاني، وكانت غرفة الجلوس فسيحة جميلة فأخذت مقعداً وجلست أمامه وقلتُ له: حسناً، تحدّث.

- شكراً لك يا مايكل. قبل كل شيء أريد أن أقول لك إنني لستُ عدوك أبداً كما قد تبادر لذهنك.

- حسناً، يسرني سماع هذا منك.

إلا إنني -مع ذلك- لم أكن واثقاً من قولي هذا، وعاد السيد ليبنكوت يقول: دعني أتحدث بصراحة، بل سأكون أكثر صراحة مما كنت أمام هذه الطفلة العزيزة التي هي تحت حمايتي ووصايتي والتي أكنّ لها كل الحب. قد لا تُقدّر ذلك يا مايكل، إلا أنني أقول لك إن إيللي من أكثر الفتيات رقة وطيبة قلب.

- لا تَخف من هذه الناحية، فأنا أحبها كل الحب.

قال السيد ليبنكوت بلهجته الجافة: ليس هذا هو نفس الشيء، أرجو إن كنتَ تحبها حقاً أن تدرك مدى إحساسها وسرعة تأثرها بأي شيء.

- سأحاول ذلك، ولا أظن أنني سأبذل جهداً كبيراً في هذا السبيل؛ فهي رائعة حقاً.

- ولهذا سأستمر فيما أنا مقدِم عليه وسأحدثك بصراحة، أنت لستَ الشاب الذي كنت أتمناه زوجاً لها؛ فقد كنتُ أتمنى رؤيتها تتزوج الشاب الذي تختاره أسرتها لها ومن مستواها بالذات.

- تريد أن تقول شاباً نبيلاً؟

- لا، ليس هذا فحسب، بل شاب من طبقتها ومن نفس مستواها الثقافي والاجتماعي لكي يكون جديراً بها. ولا أعني بقولي هذا أن يكون من ذوي المظهر الكاذب، وفي النهاية فإن هرمان جيوتمان بدأ حياته حمّالاً في الجمرك ومات وهو من أغنى رجال أمريكا.

- ربما أستطيع أن أحذو حذوه، ربما أصبح بدوري من أغنى أغنياء إنجلترا.

- كل شيء جائز. ألديكَ مثل هذا الطموح؟

- أنا أعني المال فحسب، فأنا أودّ أن... أودّ أن أنجح وأن أفعل أشياء و...

وتوقفتُ متردداً فقال: أرى أن لديك طموحاً وهذا شيء جميل. نعم، إنه شيء جميل.

- لقد بدأتُ بداية غريبة، بدأت من أسفل السلم، أنا لستُ شيئاً... أنا نكرة، ولا يمكن أن أَدّعِي غير ذلك!

أومأ السيد ليبنكوت برأسه وقال: جميل منك مثل هذه الصراحة، أنا أقدّرها منك يا مايكل. أنا لا تربطني بإيللي صلة قرابة ولكنني وصيّ عليها، أقامني جدها وصياً عليها، وأنا الآن أُدير ثروتها وأُشرف على كل استثماراتها وأتحمل -نتيجة لذلك- مسؤوليات جمة؛ ولهذا أريد أن أعرف عن الزوج الذي وقع عليه اختيارها كل ما أستطيع معرفته.

- حسناً، أظن أنه باستطاعتك أن تتحرى وأن تعرف عني كل ما تشاء بسهولة.

- بالطبع، هذا أمر هين بالنسبة لي وهو إجراء سليم من الحرص أن أقوم به، إلاّ أنني أحب أن أعرف الآن كل ما أستطيع معرفته من بين شفيتك أنت، أحب معرفة كل شيء عن حياتك حتى اليوم.

لم يرق لي ذلك طبعاً، وأظنه كان يعلم ذلك. وإنصافاً للواقع فلا أحد يروق له هذا الموقف؛ فمن طبيعة المرء أنه إذا تكلم عن نفسه فإنه يذكر خير ما فيه. رأيتُ إذن أن أتباهى ببعض الفتية الذين عرفتهم وأن أشيد ببعض أصحاب العمل الذين عملت معهم، ومهما كان الأمر فإن في كل منا جانباً من الخير وجانباً من الشر، فليس من المصلحة أن تُطلِع الناس على جانب الشر الذي فيك وأن تضرب على هذا الأثر. نعم، من الخير لي طبعاً أن أذكر أفضل ما فيّ وأن أعدّد ما فعلتُ من حميد الفعال حتى اليوم، غير أنني لم أتوقع أبداً أن هذه الطريقة ستفلح مع العم أندرو لأن في مقدوره كشف أمري إذا تحرى عني، ولم أكن واثقاً من أنه قد يفعل، ومهما كان الأمر فقد رأيت أن أذكر له الحقيقة، والحقيقة المجردة.

بدأتُ بالبدايات الحقيرة التي تثير الازدراء، فقلتُ له إن والدي كان يدمن الشراب وإن والدتي امرأة طيبة كدحَت في الحياة لتقوم على تربيتي وتعليمي، ولم أكتم عنه أنني تمرغت في التراب وأنني لم أستقر في أي عمل. واستمع العم أندرو إليّ في صبر وأناة وهو يشجعني بإبداء بعض الملاحظات من

وقت لآخر، وكانت ملاحظاته هذه عبارة عن أسئلة. كان يمكن أن أقع في الفخ الذي يرسمه لي بأن أوافقه عليها وأن أسارع لإنكارها. نعم، خامرني إحساس بأنه من الخير لي أن أكون حذراً وأن أتوخى الحرص في الرد على أسئلته، ولم تمر عشر دقائق حتى تملكني السرور والابتهاج وأنا أراه يضطجع في مقعده إلى الخلف؛ فقد كان ذلك بادرة على أن الاستجواب قد قارب على الانتهاء وقال: أنت تميل في حياتك إلى الاندفاع في المغامرات يا مايكل، وهذه طريقة غير سيئة. حدثني بالمزيد عن هذا البيت الذي تبنيه أنت وزوجتك.

– حسناً، إنه يقع على مقربة من مدينة تُعرَف باسم ماركيت شارويل.

– نعم، أعرف موقعه. وبهذه المناسبة فلقد ذهبت لرؤيته، كان ذلك بالأمس على وجه التحديد.

جفلت قليلاً؛ فقد كشف لي قوله هذا أنه رجل ملتوٍ غير مستقيم في معاملاته، يُقدِم على أساليب ملتوية لا تخطر على بال أحد، ثم قال: أرجو أن تتحقق كل أمانيك. أستطيع أن أقول لكَ إنك حققتَ أنت وإيللي صفقة طيبة بشرائكما الأرض.

كان الرجل العجوز من اللباقة فجمع بيني وبين إيللي وهو يتكلم عن أراضي الغجر ولم يقل إنها اشترتها بمفردها، وقال: لقد تشاورتُ مع السيد أدفورد.

قطبت حاجبيّ وقلت: السيد أدفورد؟

- نعم، السيد أدفورد، المستشار بمكتب ريس وكراوفورد للاستشارات القضائية والشؤون القانونية. السيد أدفورد هو الذي عقد صفقة الشراء، إنه محام مشهور. أرى أن هذه الأراضي قد بيعت بثمن بخس وقد أثار ذلك دهشتي؛ فأنا على علم بأثمان الأراضي في هذا البلد، وقد اندهش السيد كراوفورد نفسه لحصوله عليها بذلك الثمن البخس، وإنني لأتساءل إذا كنتَ تعلم السبب في ذلك لأن السيد كراوفورد لم يستطع أن يبرر لي ذلك، بل إنني أستطيع أن أقول إنه ارتبك ارتباكاً ملحوظاً حين ألقيتُ عليه هذا السؤال.

- حسناً، يُقال إن هناك لعنة تلازم هذه الأراضي!

- معذرة يا مايكل، ماذا تقول؟

فقلتُ أوضّح له الأمر: هناك لعنة تلازمها يا سيدي، لعنة الغجر أو شيء من هذا القبيل، ولا غرو فهي معروفة باسم أراضي الغجر.

نظر إليّ بفضول وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة رقيقة: ومع ذلك فلم يأخذكما الخوف من هذه اللعنة، لا أنت ولا زوجتك؟

- أبداً، لم نصدّق مثل هذا الهراء؛ فالأمر بالنسبة لنا هو أننا سعيدان لحصولنا على هذه الأراضي بهذا الثمن البخس.

وما إن نطقتُ بهذه الكلمات حتى خطر لي خاطر مفاجئ، ورأيت أن هذه السعادة إنما تنبع من جانب واحد لأن إيللي -مع كل ما تملك من نقود وعقار- ما كان يهمها في شيء أن

تشتري هذه الأرض بثمن بخس أو بثمن مرتفع، غير أنني لم ألبث أن تحققتُ من أنني مخطئ في هذا الرأي. مهما يكن من أمر فقد بدأ جدها حياته حمالاً في الجمارك ومات وهو مليونير، وأي شخص من هذا الطراز يحب أن يشتري بالثمن البخس ويبيع بالثمن المرتفع.

قال السيد ليبنكوت: حسناً، أنا لا أؤمن بالخرافات ولكن المنتظر أن بيتكم سيكون غاية في الروعة. وتردد لحظة ثم قال: كل ما أرجوه حين تنتقلا إلى بيتكما هذا للإقامة فيه ألا تسمع إيللي كثيراً عن هذه القصص التي تدور حول الموضوع.

- سأحرص على ألاّ يصل إلى سمعها أي شيء عنه، وإن كنت أعتقد أن أحداً لن يذكر لها أي شيء عنه.

قال السيد ليبنكوت: إن سكان الريف مولعون بترديد قصص من هذا النوع، ولا تنسَ يا مايكل أن إيللي ليست صلبة مثلك وبالإمكان التأثير عليها بسهولة بنوع ما، وهذا ما يجعلني أذكر...

وأمسك دون أن يزيد، ونقر بإصبعه على المائدة دقيقة أو دقيقتين ثم استطرد: سأطرق الآن موضوعاً شاقاً. لقد قلتَ لي منذ لحظات أنك لم تلتق بغريتا أندرسون.

- نعم، لم ألتقِ بها بعد كما سبق أن قلتُ لك.

- هذا غريب، غريب جداً!

- ولماذا؟

نظرتُ إليه مستفهماً فقال في بطء: كنت أعتقد أنك ربما تكون واثقاً من أنك التقيتَ بها من قبل. ما الذي تعرفه عنها؟

- كل ما أعرفه عنها هو أنها أمضت بعضاً من الوقت مع إيللي.

- إنها تعيش مع إيللي منذ أن بلغَت هذه الأخيرة السابعة عشرة من عمرها، وهي تشغل وظيفة تتطلب مسؤولية وثقة كبيرتين. لقد أقبلت في بادئ الأمر إلى الولايات المتحدة بصفتها سكرتيرة ورفيقة تلازم إيللي حين تغيب السيدة فان ستويفيزايت زوجة أبيها عن البيت، وهو أمر أستطيع أن أقول إنه يحدث كثيراً.

ونطق بالعبارات الأخيرة في جفاء ثم أردف يقول: وأعتقد أنها فتاة حسنة المنبت، جاءت بشهادات ممتازة، إنها نصف سويدية ونصف ألمانية وقد تعلقت إيللي بها كثيراً.

- هو ما أظن.

- أعتقد أن إيللي كانت شديدة التعلق بها نوعاً ما، وأظنك لا تعبأ بذلك.

- أبداً، ولماذا أعبأ؟ وإنصافاً للحقيقة أقول... حسناً، خطر لي ذلك مرة أو مرتين فهي دائمة التحدث عن غريتا والإعجاب بها. حسناً، أعلم أن هذا ليس من شأني غير أني مع ذلك سئمت هذا الأمر.

- ومع ذلك فهي لم تبدِ أي رغبة في أن تلتقي أنتَ وغريتا.

- حسناً، من العسير شرح ذلك، ولكن الحقيقة أنها اقترحت عليّ ذلك مرة أو مرتين وبطريقة لطيفة، غير أننا كنا في كل الوقت شديدَي التعلق والاهتمام كل منا بالآخر، وفوق ذلك فأنا أعتقد أنني لم أشأ حقاً أن ألتقي بغريتا حتى اليوم، لم أشأ أن يشاركني أحد في إيللي.

- حسناً. إنني... ألم تقترح إيللي أن تحضر غريتا زواجكما؟

- بل اقترحَت ذلك.

- ولكن لم تشأ أنت أن تأتي؟ لماذا؟

- لستُ أدري، حقيقة لستُ أدري! كل ما هنالك أنني أحسست أن هذه الغريتا أو هذه المرأة التي لم يسبق لي أن التقيتُ بها تتدخل دائماً في كل شيء وتُدبّر حياة إيللي؛ ترسل البطاقات البريدية والرسائل وترد عليها نيابة عنها، تدبر الخطط البارعة بخصوص رحلات وهمية وتقدمها للعائلة... خلاصة القول: أحسست أن إيللي تعتمد على غريتا في كل شيء وأنها تتركها تدبر لها حياتها وفق ما تشتهي هي وما تريد، وأنا... أنا آسف يا سيد ليبنكوت، ولكن لعلني ما كان يجب أن أقول إنني أغار منها. مهما كان من أمر فقد انفجرتُ وقلت لها إنني لا أريد أن تحضر غريتا زواجنا وإننا نحن الذين نتزوج ولا شأن لأحد بنا؛ ولهذا ذهبنا إلى مكتب الزواج وشهد على زواجنا الموظف الذي يقوم بإدارة المكتب والفتاة التي تطبع على الآلة الكاتبة، وأستطيع القول إنني كنت من الخسة بحيث رفضتُ غريتا، وكان عذري هو أنني أردت إيللي لي وحدي.

– أنا أتفهم الأمر. نعم، وأعتقد أنك كنت حكيماً يا مايك، هذا إذا جاز لي قول ذلك.

فقلتُ في خبث: أرى أنك لا تميل إلى غريتا أنت أيضاً. ولكن لماذا لا تحب غريتا؟

أجاب السيد ليبنكوت: أنت زوج إيللي، أنا لا همّ لي إلا سعادتها وأعتقد أن نفوذ غريتا عليها أمر غير مرغوب فيه؛ فغريتا شديدة الاعتداد بنفسها.

– هل تظن أنها ستحاول بذر الشقاق بيننا؟

– بل أظن أنه لا حق لي بقول شيء من هذا القبيل.

وراح ينظر إليّ بحذر وهو يرمش بعينيه كما تفعل السلحفاة العجوز، ولم أدرِ ماذا أقول، ولكنه قطع حبل الصمت فقال وهو ينتقي كلماته في شيء من الحرص: ألم تفلح زوجتك في إقناعك بأن تقيم غريتا معكما؟

– لن يحدث هذا إن استطعت الحيلولة دونه.

– آه، هذا هو شعورك إذن؟ أرى أن هذه الفكرة كانت موضع بحث.

– ذكرَت إيللي شيئاً من هذا القبيل، ولكننا تزوجنا حديثاً يا سيد ليبنكوت وأريد بيتنا، بيتنا الجديد، لنا وحدنا. أظن أن غريتا ستأتي طبعاً وتقيم بيننا بعض الوقت وهذا طبيعي.

– هذا أمر طبيعي كما تقول، ولكن مما لا ريب فيه هو أن غريتا ستكون في موقف عسير بالنسبة للاحتفاظ بوظيفتها.

المهم ليس ما تقترحه إيللي، بل المهم هو ما قد يفعله أولئك الذين ألحقوها بخدمتهم وخانت ثقتهم.

- هل تعني أنك لا أنت ولا زوجة أبيها ستمنحانها شهادة تُعينها على الالتحاق بوظيفة أخرى؟

- سنفعل ذلك في الحدود القانونية.

- وهل تعتقدها تأتي لإنجلترا للإقامة معنا.

- لا أريد التحامل ضدها كثيراً. ومهما كان فإن كل ما قلته عنها إنما هو رأيي الشخصي، أنا لا أقر بعض الأمور التي أقدمَت عليها ولا الطريقة التي تصرفَت بها، وأظن أن إيللي -على الرغم مما عُرفت به من رقة القلب والشمائل- لن ترضى بتحطيم مستقبل غريتا وقد تصر على قدومها للإقامة معكما.

قلت في بطء وقد بدا عليّ الانزعاج بعض الشيء (وأظن أن ليبنكوت قد لاحظ ذلك): لا أظن أن زوجتي ستصر على ذلك، ولكن ألا نستطيع... أعني: ألا نستطيع منحها راتباً؟

رَدَّ السيد ليبنكوت: لا يمكن تقديم الأمر بهذه الصورة، فهناك قوانين ولوائح خاصة تنظم المعاشات، وغريتا ما زالت في ريعان الشباب. وتابع يقول باستنكار مستهجناً: وأستطيع القول إنها مليحة، بل هي جميلة يفتتن بها الرجال.

- إن كان الأمر كذلك فسوف تتزوج، وإن كانت جميلة حقاً كما تقول فلماذا لم تتزوج حتى الآن؟

- لقد افتتن بها الكثيرون كما أعتقد، ولكنها لم تشجع أحداً منهم. وعلى كل حال فأنا أظن أن اقتراحك معقول، وأعتقد أننا نستطيع تدبير الأمر بحيث لا نجرح شعورها، فمن الطبيعي أن إيللي -وقد بلغت سن الرشد وتزوجت بمعونتها- تستطيع أن تعيِّن لها معاشاً؛ عرفاناً منها بالجميل.

نطق السيد ليبنكوت بالكلمتين الأخيرتين وهو متجهم الأسارير، فقلتُ بابتهاج: حسناً، الأمر على ما يُرام إذن؟

- مرة أخرى أقول لكَ إنك متفائل، فلنأمل أن تقبل غريتا هذا الحل.

- ولماذا لا تقبله؟ ستكون حمقاء إن لم تفعل.

قال السيد ليبنكوت: لستُ أدري، سيكون أمراً غريباً إن لم تقبل، وستبقى بينهما أواصر الصداقة طبعاً.

- هل تظن... ولكن ماذا تظن؟

- وددتُ لو يزول سلطانها عن إيللي. ونهض السيد ليبنكوت وتابع يقول: أرجو معاونتي وبذل قصارى جهدك كي نفلح في هذا.

- لكَ أن تعتمد عليّ لأن آخر شيء أريده هو أن تقيم غريتا بيننا.

- مَن يدري، ربما تغيِّر رأيك بعد رؤيتها.

- لا أعتقد ذلك، فأنا لا أحب النساء المدبرات مهما بلغت كفاءتهن ومهما بلغ جمالهن.

- أشكرك يا مايكل إذ أصغيتَ إليّ بكل هذا الصبر، وأرجو أن تتناول العشاء معي أنت وزوجتك يوم الثلاثاء القادم إن أمكن. ربما تأتي كورا وفرنك بارتون أثناء ذلك.

- أظن أنه لا مناص لي من مقابلتهما؟

- بالطبع، هذا أمر لا بد منه.

ابتسم لي، وبدت ابتسامته عندئذ أقرب منها للصدق من أي وقت مضى وتابع يقول: يجب ألاّ تزعج نفسك كثيراً لأن كورا ستقسو عليك وسيُغلِظ لكَ فرانك القول، أما روبن فقد لا يأتي في الوقت الحاضر.

لم أدرِ مَن هو روبن هذا. خطر لي أنه ربما يكون قريباً آخر، ومضيت إلى الباب الفاصل ففتحته قائلاً: تعالي يا إيللي، لقد انتهى الاستجواب.

فأقبلت إيللي وأخذت تنقل بصرها بيننا، ثم مضت إلى السيد ليبنكوت قائلة: أيها العم العزيز أندرو، أستطيع أن أرى أنك كنت ظريفاً مع مايكل.

- حسناً يا عزيزتي، لو أنني لم أكن ظريفاً مع زوجك لما لجأتِ إلى خدماتي كثيراً في المستقبل، أليس كذلك؟ يحق لي أن أزجي ببضع كلمات من النصح من وقت لآخر؛ فأنتما ما زلتما في مقتبل العمر لم تخبرا الحياة بعد.

قالت إيللي: حسناً، سنصغي إليك بصبر وأناة.

- والآن يا عزيزتي إيللي، أريد أن أتبادل بضع كلمات معك إذا شئت.

قلتُ: حان دوري كي أخرج أنا الآخر.

ومضيت إلى الغرفة الأخرى وأغلقت الباب بحرص، ولكنني لم أحكم إغلاقه عامداً؛ فأنا لم أكن مهذباً كإيللي، وقد أردتُ التحقق إن كان للسيد ليبنكوت وجهان. ولم تكن بي حاجة لأن أسمع أي شيء؛ فقد زودها ببضع نصائح ثم تكلم معها كي يعرف إن كانت مستعدة لتجري معاشاً لغريتا، وتقبّلت فكرته بلهفة وقالت إنها كانت تريد أن تطلب منه ذلك، واقترح عليها عندئذ منح كورا معاشاً إضافياً وتابع: ليس هناك أي داع يدعوك لأن تفعلي هذا طبعاً؛ فهي تتقاضى معاشاً طيباً من أزواجها السابقين كما تتقاضى دخلاً محترماً من ثروة جدك.

- ومع ذلك فأنت ترى أن أعطيها معاشاً إضافياً؟

- لا أظن أن هناك أي قانون يرغمك على ذلك، ولكنني أعتقد أنكِ إن فعلتِ هذا فسوف تكتسبينها إلى جانبك وتسكتين لسانها وتوفّرين على نفسك ما قد تجره عليك من متاعب. ويمكنك منحها المعاش الإضافي بطريقة تمكنك من استرجاعه متى تشائين، فإن وجدتِ أنها لا تزال تطلق الإشاعات المغرضة الخبيثة عن مايك أو عنكِ فإن مجرد معرفتها أن باستطاعتك استرجاع ذلك المعاش ستجعلها تتحفظ في مسلكها بحيث تمتنع عن الإشاعات المغرضة التي تعرف كيف تطلقها.

قالت إيللي: لطالما حقدَت كورا عليّ، لقد كنتُ دائماً على ثقة من ذلك. ثم تابعَت تقول في حياء: أنت تحب مايك أيها العم أندرو، أليس كذلك؟

فأجاب السيد ليبنكوت: أظن أنه شاب وسيم جذاب، وأستطيع أن أفهم الآن لماذا أقدمتِ على الزواج به.

دلّ هذا القول على كرمه ورقة طبعه. وأغلقتُ الباب في رفق ولم تلبث إيللي أن جاءت تبحث عني بعد لحظات. ووقفنا معاً نودّع العم أندرو حين طُرِق الباب ودخل أحد الخدم وبيده برقية، ففضّتها، وما كادت تفعل حتى هتفت تقول: إنها من غريتا! إنها قادمة إلى لندن الليلة وستأتي لزيارتنا غداً. ما أجمل هذا!

ونظرَت إلينا معاً وتابعَت: أليس كذلك؟

ورأت أمامها وجهين متجهمين وسمعت ردين مهذبين؛ قال أحدهما: نعم، حقاً يا عزيزتي. في حين قال الآخر: بالطبع.

* * *

الفصل العاشر

خرجتُ في اليوم التالي باكراً لأشتري بعض ما نحتاج إليه، وعدت إلى الفندق متأخراً على غير ما كنت أتوقع فوجدتُ زوجتي جالسة في غرفة الاستقبال وبصحبتها فتاة شقراء طويلة القامة هي غريتا. كانتا غارقتين في حديث ودي طويل.

أنا لا أحسن وصف الناس، ولكنني سأحاول وصف غريتا مع ذلك، فأبدأ القول بأنها مليحة كما قالت إيللي، بل أزيد فأقول إنها جميلة؛ فهي على قسط وافر من الجمال (كما قال السيد ليبنكوت على كره منه)، وأعتقد أنه لم يشعر بأي ميل نحو غريتا، ومع ذلك فقد كانت حين تسير في قاعة الفندق أو في قاعة الطعام يدير الرجال أعناقهم ويتابعونها بنظراتهم.

كانت من أهل الشمال، من أولئك الشقراوات ذوات الشعر الذهبي، تجمعه في حلقة كبيرة فوق كتفيها كعادة أهل شلسي. كانت تبدو كما هي تماماً (سويدية أو ألمانية)، والحق أنها كانت ذات عينين واسعتين زرقاوين وقوام رائع يفتن الرجال بحسنه وجماله.

ودنوتُ منهما وانضممتُ إليهما، وحييتهما معاً وأنا أرجو أن أكون طبيعياً في تصرفي بعيداً عن الجفوة، ولكنني لم أستطع منع نفسي من الإحساس بشيء من الضيق لأنني لا أحسن التصنع أو المداهنة، وقالت إيللي على الفور: أخيراً يا مايك، أقدِّم لك غريتا.

قلت -وأنا أحاول المزاح نوعاً ما- إنني قد أدركت ذلك، ولكن محاولتي هذه لم تفلح فقلت: تسرني رؤيتك أخيراً يا غريتا.

فقالت إيللي: لعلك تعرف أنه لولاها لما تم زواجنا.

- كنا سندبر أمورنا بطريقة أخرى على كل حال.

- ما كنا لنستطيع ذلك لو أن الأسرة هبطت علينا هبوط الصاعقة، كانوا سيفلحون في التفريق بيننا بأي طريق. حدثيني يا غريتا عما فعلوه معك فأنت لم تقولي لي شيئاً عن ذلك.

ردّت غريتا: أعلم أن مثل هذه الأشياء ليست بالتي تُكتب لعروس تقضي شهر العسل.

- ولكن... هل حقدوا عليك حقاً؟

- طبعاً، ماذا كنت تتصورين؟ ولكنني كنت متأهبة لذلك.

- ماذا قالوا لكِ؟ وماذا فعلوا بك؟

فردّت في مرح: فعلوا كل ما استطاعوا فعله بادئين بطردي طبعاً.

– نعم، أظن أن ذلك كان أمراً لا بد منه، ولكن ماذا فعلت أنتِ؟ مهما يكن فما كان في مقدورهم أن يرفضوا إعطاءك شهادة بمدة خدمتك.

– لقد رفضوا. وعلى كل حال وطبقاً لوجهة نظرهم فقد خنت الثقة والأمانة اللتين يتطلبهما عملي وفعلت ذلك بصورة معيبة. ثم تابعَت تقول: ومهما يكن فقد سرني أنني فعلتُ ما فعلت.

– ولكن ماذا ستفعلين الآن؟

– لقد وجدتُ عملاً سألتحق به قريباً.

– في نيويورك؟

– لا، بل هنا في لندن... سكرتيرة.

– ولكن... هل أنتِ على ما يرام؟

– وكيف لا أكون يا عزيزتي وقد بعثتِ لي ذلك الشيك الكبير تعويضاً عما يمكن أن يقع لي من أمور بغيضة.

كانت لهجتها الإنجليزية سليمة وإن كانت تستعمل بعض الاصطلاحات القديمة التي لم تعد تجري على لسان أحد، واستطردَت: لقد طفتُ ببعض بقاع العالم وعقدت العزم على الاستقرار في لندن، ولقد اشتريت مجموعة من الحاجيات.

قالت إيللي وهي تبتسم: ونحن أيضاً اشترينا الكثير منها أنا ومايك.

وكان ذلك حقاً؛ فقد اشترينا أشياء كثيرة جميلة من

مختلف البلدان التي زرناها، فمن الجميل حقاً أن يملك المرء مالاً وفيراً كي يستطيع أن ينفق منه بغير حساب. اشترينا أقمشة وأنسجة حريرية من إيطاليا للبيت الجديد، كما اشترينا لوحات فنية من إيطاليا وباريس دفعنا فيها مبالغ يُخيل لغيرنا أنها مبالغ جسيمة، وهكذا فُتِحَت الدنيا بأسرها أمامي وبطريقة لم أكن أتوقعها أبداً.

قالت غريتا: تبدوان سعيدين معاً.

فردت إيللي: أنتِ لم تري بيتنا بعد. سيكون تحفة رائعة، سيكون كما تصورناه تماماً في أحلامنا، أليس كذلك يا مايك؟

- ولكنني رأيته في أول يوم عدتُ فيه لإنجلترا؛ فقد أخذتُ سيارة أجرة أقلتني إلى هناك.

قلتُ أنا وإيللي في نفس الوقت: حسناً؟

فردّت غريتا بعد تفكير: لا بأس به.

وراحت تحرك رأسها ذات اليمين وذات الشمال، وارتسمت أمارات الحزن الشديد على إيللي ولكن الخدعة لم تنطلِ عليّ أنا؛ فقد أدركتُ على الفور أن غريتا إنما تريد مداعبتنا وإن كان قد بدا لي أن دعابتها هذه من النوع السمج البغيض.

ولم يلبث هذا الخاطر أن تلاشى لأن غريتا انفجرت ضاحكة، وكانت ضحكتها كبيرة موسيقية حملت الرجال على النظر ناحيتنا وقالت: كان يجب أن تريا وجهيكما وخاصة أنت

يا إيللي، لقد أردتُ مداعبتكما قليلاً، إنه بيت رائع جميل والمهندس الذي صممه عبقري.

فقلت: بالطبع؛ فهو رجل غير عادي، انتظري حتى تلتقي به.

قالت غريتا: التقيت به؛ فقد كان موجوداً يوم أن ذهبتُ لأرى البيت. إنه رجل عجيب، بل هو مخيف!

قلت مشدوهاً: مخيف؟ وكيف ذلك؟

فأردفَت قائلة: وهو يبدو مريضاً فوق ذلك.

- بل هو مريض فعلاً، مريض جداً.

- هذا شيء مؤسف، ومِمَّ يشكو؟ أمِن داء السل؟

- لا، لا أظنه مريضاً بالسل، ولكنني أعتقد أن هناك شيئاً في دمه.

- لقد أصبح في مقدور الأطباء في أيامنا هذه معالجة جميع الأمراض تقريباً، هذا إن لم يقتلوا المريض وهم يحاولون شفاءه. ولكن دعنا من هذا الآن ولنفكر في البيت. متى يفرغ العمل فيه؟

- قريباً جداً، وما كنتُ لأتصور أبداً أن يتم بناء منزل بمثل هذه السرعة.

قالت غريتا بلا اكتراث: إنه المال؛ فبفضله وبفضل العمل المستمر والأجر الإضافي يتم كل شيء. أنت لا تقدّرين نفسك

حق قدرها يا إيللي، ما أجمل أن يملك الإنسان كل ما يريد من مال!

أما أنا فكنتُ أقدّرها وأقدّر قوة المال وسطوته؛ فقد تعلمت وتعلمت الكثير في الأسابيع القليلة الماضية. كان لا بد لي من مدة طويلة قبل أن أعتاد ذلك وأتصرف كما يجب، لكن ذلك لم يهمني كثيراً، غير أنني لم ألبث أن عرفت كنه الأشياء بحيث أصبحت نداً لرجال من طراز ليبنكوت؛ فلم أعد أخشى شيئاً حين أقبلت السيدة كورا وأعمام إيللي بعد ذلك.

وفي آخر ذلك اليوم (وكان الوقت مساء) قالت إيللي في محاولة أخيرة: مايك؟ أنت تحب غريتا، أليس كذلك؟

فأجبت: طبعاً.

- ما كنتُ لأحتمل الأمر لو أنك لا تحبها.

قلت محتجاً: ولكنني أحبها، ما الذي يحملك على الظن بعكس ذلك؟

- لست واثقة تماماً، حسبتُ ذلك من نظراتك الصارمة التي ترميها بها وأنت تخاطبها.

- حسناً، أظن أن ذلك لأنني أشعر بالانفعال.

- الانفعال من غريتا؟

- نعم، فهي توحي إليّ بشيء من الخوف كما تعلمين.

ردّت إيللي في حزن: أعرف أننا نقضي كل وقتنا (أنا وهي) في تبادل الحديث؛ فقد وقعَت لنا أشياء كثيرة يطيب لنا أن نستعيدها معاً، وهي أشياء ربما تشعر أنت ببعض الحرج إن سمعتها، ولكنكما ستصبحان صديقين قريباً؛ فهي تحبك، لقد اعترفَت لي بذلك.

- اسمعي يا إيللي، ما كان لها أن تقول ذلك على كل حال.

- إنها ما قالت ذلك إلا لأنها صريحة، ولا شك أنك سمعتها... أعني أنك -ولا شك- سمعتها وهي تتحدث عن بعض الأمور اليوم.

وإنصافاً للحق فإن غريتا لم تتصنع في حديثها أثناء الطعام، فقد قالت (وكانت في الواقع تخاطبني أنا أكثر مما لو كانت تخاطب زوجتي): لا ريب أنك قد دُهشتَ بعض الشيء من تلك الطريقة التي ساندتُ بها إيللي على الرغم من أنني لم أكن قد عرفتكَ بعد، لكنني كدتُ أن أُصاب بمس من الجنون من تلك الطريقة التي اتخذوها في تدبير حياتها؛ فلقد أعماهم المال كما أعمتهم التقاليد فلم يتركوا لها أية فرصة كي تستمتع بحياتها فتمضي وتنطلق حيث تشاء، ولقد أرادت أن تتمرد على حياتها ولكنها لم تعرف كيف تفعل ذلك. وهكذا ساعدتُها؛ فاقترحتُ عليها أن تبحث لها عن بيت في إنجلترا، وحين بلغت سن الرشد (أي الواحدة والعشرين) قلت لها إنها تستطيع أن تشتري ذلك البيت وأن تقيم فيه بعيداً عن أهلها الأمريكيين.

قالت إيللي: إن لغريتا دوماً آراء مدهشة. إنها تفكر في أمور ما كانت تخطر لي على بال.

وتذكرتُ عندئذ تلك الكلمات التي نطق بها ليبنكوت في حديثه معي: "إن لها تأثيراً ونفوذاً كبيرين على إيللي". وتساءلتُ إن كانت هذه هي الحقيقة؟ ومن الغريب حقاً أنني لم أعتقد ذلك؛ فقد كان هناك شيء في زوجتي لم تقدّره غريتا ولم تفهمه حق الفهم على الرغم من معرفتها الوثيقة بها، وهذا الشيء هو أن إيللي كانت مستعدة دائماً لتقبل أية فكرة تتفق مع رغباتها. صحيح أن غريتا حثتها على التمرد، لكن إيللي كانت -في قرارة نفسها- تريد أن تتمرد ولكنها لم تدرِ كيف تفعل. لقد أدركتُ ذلك الآن بعد أن أصبحتُ في موقف يمكّنني من معرفتها أكثر من غيري.

وعجبتُ لأمر السيد ليبنكوت، وقلت ونحن نلتهم بعض ثمار الخوخ: يبدو أن السيد ليبنكوت قد تقبل أمر زواجنا تقبلاً حسناً، إن هذا يثير دهشتي!

قالت غريتا: إنه ثعلب عجوز.

فردّت إيللي: أنتِ تقولين هذا دائماً يا غريتا، ولكنني أعتقد أنه صديق عزيز، بل أكثر من صديق.

فقالت غريتا: لك أن تستمري في رأيك هذا إن شئتِ، أما أنا فلن أثق فيه أبداً.

- لن تثقي فيه؟

هزّت غريتا رأسها وقالت: أعلم أنه ينطق بالاحترام والوقار، وأعلم أن منظره يستوجب الثقة، فهو كل شيء؛ وصي وقيّم ومحام.

ضحكَت إيللي وسألَتها: هل تعنين أنه يختلس ثروتي؟ لا تكوني حمقاء يا غريتا؛ فهناك آلاف من الموظفين والمصارف والمراجعين وغيرهم.

قالت غريتا: أعرف أنه لا غبار عليه في هذه الناحية، ومع ذلك فهو من هؤلاء الناس الذين يمكن أن يختلسوا، أعني من هؤلاء الناس الذين يفرضون الثقة ثم لا يلبث الجميع أن يقولوا بعد ذلك: "ما كنا نعتقد هذا عنه! إنه آخر رجل كان يخطر لنا أن يفعل هذا!".

قالت إيللي في شيء من الشك إنها تظن أن عمها فرانك من الطراز الذي يخون الثقة ويختلس ما يؤتمن عليه من أموال، فردّت غريتا عليها قائلة: حسناً، إنه يبدو كاللصوص والنصابين، ومظهره هذا يحول بينه وبين النجاح في أي عمل؛ فهو رجل ظريف رقيق الحاشية أما قلبه فلن يطاوعه أبداً على أن يكون محتالاً كبيراً.

فسألتها: أهو شقيق أبيك؟ (لم لم أكن قد وجدتُ الوقت الكافي لكي أسأل إيللي عن أهلها)، فأجابت إيللي: بل زوج عمتي؛ فلقد هجرَته عمتي وتزوجت برجل غيره وماتت منذ ست أو سبع سنوات، وبقي العم فرانك دائم الصلة بالأسرة بعد ذلك.

قالت غريتا في رقة مقدّمةً معونتها: إنهم ثلاثة من الطفيليين المتعلقين بالأسرة؛ فقد كان لإيللي عَمّان، قُتِل أحدهما في كوريا ومات الثاني في حادث، أما الثلاثة الذين أعنيهم فهم: كورا زوجة أبيها، والعم فرانك، وابن الخال روبين الذي تدعوه خالها في حين أنه ابن خالها في الواقع، ثم هناك أندرو ليبنكوت وستانفورد لويد.

فسألتها في حيرة: ومَن هو ستانفورد هذا؟

- إنه وصي آخر، أليس كذلك يا إيللي؟ إنه يستثمر أموالك على كل حال، وليس هذا بالأمر العسير حقاً؛ لأنك حين تملك مبالغ طائلة كما تملك إيللي فإن هذه المبالغ تنمو وتنمو وتتضخم طول الوقت دون أن يكون بك حاجة لكي تهتم بها بنفسك. هؤلاء هم الحاشية التي تحيط بإيللي.

قالت إيللي: لا شك عندي في أنك ستلتقي بهم قريباً؛ فسوف يأتون لرؤيتك.

نظرتُ إلى إيللي وقد ندّت عنها تنهيدة ساخرة، فقالت في رقة وعذوبة: لكن لا تعبأ بهم يا مايك؛ فسوف يعودون من حيث أتوا.

* * *

الفصل الحادي عشر

أقبلوا جميعاً، ولكنهم لم يبقوا كثيراً. لم يبقَ أيٌّ منهم في تلك المرة لأنها كانت أول زيارة لهم ولأنهم قصدوا رؤيتي، وكان من العسير عليّ فهمهم، ولا ريب أن ذلك لأنهم أمريكيون. كانوا من نوع لم أتعود عليه كثيراً؛ كان بعضهم بادي الرقة والظرف أكثر مما يجب، ومن هؤلاء العم فرانك. وقد اتفقتُ مع غريتا في رأيها؛ فما كنتُ لأثق فيه أبداً، فقد التقيتُ بكثيرين من أمثاله بإنجلترا.

كان رجلاً ضخماً يميل إلى السمنة، تحيط بعينيه الغضون والجيوب وتكسبه منظراً بغيضاً، وقد اقترض مني بعض المال أكثر من مرة؛ فقد أراد أن يختبرني وأن يتحقق من قبولي إقراضه بسهولة، وكان هذا الأمر -في حد ذاته- مدعاة لقلقي لأنني لم أعرف ما هي الطريقة المثلى لكي أتصرف معه؛ فهل كان من الأفضل أن أرفض إقراضه مباشرة وأن أدعه يعرف أنني بخيل شحيح أم كان التظاهر بالكرم وعدم الاكتراث هو الأفضل؟ إنهما أمران لا ينطبقان عليّ أبداً. لعنة الله على العم فرانك!

أما كورا (زوجة أبي إيللي) فقد أثارت جزعي أكثر من أي شخص آخر؛ كانت في نحو الأربعين من عمرها، ممشوقة القوام مصبوغة الشعر فياضة الشعور، وخاطبَت إيللي بلهجة تقطر عذوبة فقالت: لا تهمني تلك الخطابات التي أرسلتِها إليّ يا إيللي، ولكن الحق أن زواجك بهذه الصورة كان صدمة كبيرة أصابتني في الصميم. كل هذه السرية؟! أنا أعرف طبعاً أن غريتا هي المسؤولة عن كل ذلك.

فردّت إيللي: لا تلومي غريتا؛ فأنا لم أشأ أن أزعجكم جميعاً، وقد خطر لي أنني قد أوفر عليكم صخباً لا داعي له.

- حسناً، لا بأس يا عزيزتي إيللي، ولكن رجال الأعمال هاجوا وماجوا واصفرّت وجوههم وأثارهم الأمر، وخصوصاً ستانفورد لويد وأندرو ليبنكوت. أظن أنهما خافا أن يلومهما أحد لعدم اهتمامهما بك كما يجب، ما كان أحد منهم يعرف مايك طبعاً وما كان بوسعهم أن يدركوا مدى ظرفه وكياسته.

ورمتني بابتسامة حلوة ما رأيتُ في حياتي ابتسامة كلها رياء مثلها، فأدركتُ منها أنها تمقتني كل المقت! حتى ابتسامتها كان لها معناها، فأندرو ليبنكوت كان قد عاد لأمريكا وأزجى إليها النصح وطلب منها توخّي الحذر في معالجتها لإيللي؛ لأن هذه الأخيرة تنوي بيع ممتلكاتها في أمريكا للإقامة بإنجلترا، كما تنوي -كذلك- منح كورا معاشاً إضافياً يمكّنها من العيش حيث تريد.

وما ذكر أحد شيئاً عن زوج كورا؛ فاستنتجتُ من ذلك أنه هجرها وذهب إلى بقعة أخرى من العالم، وتوقعتُ أنه قد

ذهب هناك بمفرده كما توقعت وقوع طلاق آخر! ومهما يكن فهي (كورا) لن تجني من طلاقها هذا شيئاً؛ لأن زوجها الأخير كان شاباً يصغرها سناً، وكل ما يملكه لم يكن يتجاوز وسامته ورجولته، وقد رغبَت كورا هذا المعاش الاستثنائي فقد كانت مسرفة جداً، ولا ريب أن ليبنكوت العجوز قد ألمح لها في وضوح بأن هذا المعاش سيتوقف صرفه متى شاءت إيللي، أو إن هي نسيَت نفسها فانتقدت زوج إيللي الجديد.

أما ابن الخال (أو الخال روبين) فلم يأتِ بل كتب رسالة لإيللي، وكانت رسالة مرحة لا تربطه بأي شيء، قال فيها إنه يرجو لها التوفيق والسعادة في زواجها وإن كان يشك في أنها ستستطيب الإقامة في لندن: "أما إذا لم تطب فعودي إلى الولايات المتحدة، واعلمي يا إيللي أننا سنرحب بك".

قلت لإيللي: إنه يبدو ظريفاً.

فأجابت بتفكير: نعم.

ولكن بدا لي من لهجتها أنها غير متأكدة من ذلك؛ فسألتها: هل أنتِ مولعة بأي منهم يا عزيزتي؟ ربما ما كان لي أن أسأل؟

- بل يمكنك أن تسأل عن كل شيء طبعاً.

ولكنها لزمت الصمت لحظة أو لحظتين ثم قالت أخيراً في شيء من العزم والتصميم: لا، لا أظن أنني مولعة بأي منهم، وهذا غريب! ولكن أظن أن شعوري هذا مرجعه إلى أنهم ليسوا أقاربي حقاً، أعني أنهم لا يمتون إليّ بصلة الرحم. لقد أحببتُ

أبي وأحببت كل ما أذكره عنه، أظنه كان رجلاً ضعيفاً خيَّب ظن جدي لأنه لم يشعر بأية قابلية للعمل، فما كان يهتم بغير الذهاب إلى فلوريدا لصيد السمك! لقد تزوج كورا -فيما بعد- فلم أهتم بها أبداً، كما أنها لم تُبدِ بي أي اهتمام هي الأخرى، أما أمي الحقيقية فلا أذكر عنها شيئاً؛ لذا أحببتُ عمي هنري وعمي جو، فقد كانا مرحَين يميلان إلى اللهو، بل كانا أكثر مرحاً من أبي، فقد كان أبي رجلاً هادئاً حزيناً، أما العم جو والعم هنري فقد كانا متهورين ذلك التهور الذي يخلقه المال الوفير. ثم مات العم جو في حادث تصادم في حين قُتِل العم هنري في الحرب، وكان جدي قد أصابه المرض في ذلك الوقت، وكانت صدمة كبيرة له أن يموت أولاده الثلاثة؛ فما اهتمّ بكورا وما شعر نحوها بأي ميل، وكذلك ما أظهر أي ميل بالأقارب البعيدين ولا بالخال روبين لأنه كان لا يثق به؛ ولهذا أوقف ثروته وقد آل جزء كبير منها إلى المستشفيات والمتاحف، وأجرى جدي معاشاً كبيراً على كورا وعلى العم فرانك.

- ولكنه أوصى لكِ بالجزء الأكبر من ثروته؟

- نعم، وأظن أن هذا الأمر قد أزعجه كثيراً؛ فقد بذل جهده كله كي يعنى بي.

- بأن جعل العم أندرو قيِّما عليك هو وستانفورد لويد؟

- نعم، وأظنه حسب أنني لن أستطيع أن أعنى بها بنفسي كما يجب، وأغرب ما في الأمر هو أنه أوصى بأن يؤول إليّ كل شيء في سن الواحدة والعشرين لا في الخامسة والعشرين كما

يفعل أغلب الناس. أعتقد أن هذا يرجع إلى كوني فتاة.

قلت: هذا غريب حقاً! كان الأمر سيبدو معقولاً لو أنكِ كنتِ رجلاً.

هزت إيللي رأسها وردّت: أظن أن جدي كان من رأيه أن من طبيعة الشباب التهور وأن النساء يستطعن أن يلعبن بعقله قبل أن يبلغ سن الخامسة والعشرين، وقد قال لي ذات مرة إنه إذا كانت الفتاة على استعداد لأن تتصرف بحكمة فإنها تستطيع أن تفعل ذلك إذا ما بلغت الواحدة والعشرين وإنه ليس هناك أي داع كي تنتظر أربع سنوات أخرى. ثم أضافت بخبث: أنت لا تميل لأي واحد منهم، أليس كذلك؟

- أظن أن كورا ذات وجهين، ولو أنني لا أعرفها جيداً... آسف يا إيللي؛ ما كان يجب قول هذا طبعاً.

- ولِمَ لا؟ إذا كان هذا هو رأيكَ حقاً فأظن أنك لا تجانب الصواب.

- لا ريب أنك أحسست بالوحدة دائماً يا عزيزتي؟

- نعم، كنت دائماً وحيدة. لقد عرفت فتيات كثيرات يقاربنني سناً وأُلحقت بمدرسة داخلية لا تدخلها إلا بنات العائلات الراقية، ولكنني ما شعرت أبداً بأنني حرة أستطيع عمل ما أشاء. كنت إذا ما تصادقتُ مع فتاة عجّلوا بالتفريق بيننا بحجة أن صحبتها لا تليق، وإن اهتممتُ بأحد لم أستطع التمرد لأنه ما كان هناك مَن يستحق التمرد من أجله! ثم جاءت غريتا

فتغيّر كل شيء؛ فاهتممت بها لأول مرة في حياتي وتعلقت بها.

ورقّت قسماتها وهي تنطق بذلك، فنظرتُ إلى النافذة وأنا أقول: أريد...

- ماذا؟

- لا أدري! لعلي أريد أن أقول إنه لا يجب أن تعتمدي على غريتا؛ فليس جميلاً أن تعتمدي على أحد ما بهذه الصورة.

قالت إيللي: أنت لا تحبها يا مايك.

فأسرعت أقول محتجاً: بل أحبها، أحبها حقاً، ولكن لا تنسي أنها غريبة عني. دعيني أصارحك، أنا أغار منها قليلاً لأنكما... حسناً، لأنكما شديدتا التعلق بعضكما ببعض.

- لا تكن غيوراً، إنها الشخص الوحيد الذي كان كريما معي والذي عني بأمري إلى أن التقيتُ بك.

- ولكنكِ التقيتِ بي وتزوجتِ بي.

ثم قلتُ مرة أخرى ما سبق أن قلته لها قبلها: وسنعيش سعيدين معاً إلى الأبد بعدها.

* * *

الفصل الثاني عشر

أحاول بقدر المستطاع رسم صورة للأشخاص الذين دخلوا حياتنا، أو لعلي يجب أن أقول الذين دخلوا حياتي أنا؛ لأنهم كانوا يحتلون مكاناً قبل ذلك في حياة زوجتي. وكانت غلطتنا أن حسبناهم سيخرجون من حياتنا، ولكنهم لم يخرجوا، بل ما كانت لديهم النية على ذلك، وإن كنا لم نعرف ذلك وقتئذ.

وكان الجانب الإنجليزي من حياتنا هو الحدث التالي؛ فقد تم بناء بيتنا وجاءتنا برقية من سانتونيكس يطلب منا فيها أن نظل بعيداً نحو أسبوع، ثم أتتنا برقية أخرى بعدها يقول فيها: "احضرا غداً". وأسرعنا بالذهاب فوصلنا عند غروب الشمس، وسمع سانتونيكس صوت سيارتنا فخرج لملاقاتنا أمام البيت.

وحين رأيت البيت ركض قلبي بين ضلوعي من فرط الانفعال؛ فهذا البيت هو بيتنا! وهكذا تحققَت أمنيتي أخيراً. وشددت الضغط على ذراع زوجتي في حين قال سانتونيكس: هل يروق لكما؟

- إنه يفوق كل ما كنت أتصور.

وكان قولاً سخيفاً في حد ذاته، ولكنه كان يعرف ماذا أقصد، فقال: نعم، إنه أحسن بيت بنيته حتى الآن، ولقد كلّفكما مبلغاً ضخماً من المال ولكنه يساوي كل ما أُنفِق عليه، فقد تجاوزتُ كل تقديراتي... تعال يا مايك، احمل زوجتك بين ذراعيك، من عادة العريس أن يحمل عروسه إلى بيته.

احمرّ وجهي وحملت زوجتي. كانت خفيفة فاجتزت بها عتبة البيت كما قال سانتونيكس، وتعثرت قليلاً وأنا أفعل ذلك فقطب سانتونيكس جبينه وقال: ها أنتما في بيتكما الآن يا مايك، كن كريماً معها، احرص على ألاّ يصيبها شيء؛ فهي لا تستطيع العناية بنفسها وإن كانت تظن أنها تستطيع ذلك.

فقالت إيللي: ما الذي يمكن أن يقع لي؟

قال سانتونيكس: إننا نعيش في دنيا حافلة بآثام وشرور، وهناك قوم شريرون يحيطون بك يا فتاتي. أنا أعني ما أقول حقاً؛ فلقد رأيت شخصاً أو شخصين منهم، رأيتهما هنا، جاءا يدفعهما الفضول وهما يتشممان كما تفعل الجرذان.

فقالت إيللي: لن يزعجنا أحد منهم بعد ذلك؛ فقد عادوا كلهم إلى الولايات المتحدة.

- كان بودي السهر عليك بنفسي ولكنني لن أستطيع؛ فأيامي معدودة. عليكِ أن تحرصي على نفسك جيداً.

فقلت: لا تتشبه بالغجر يا سانتونيكس وامضِ بنا في أرجاء البيت وأرِنا كل ما فيه.

وهكذا أخذنا نطوف بالبيت. كانت بعض الغرف لا تزال فارغة ولكن أكثر الأشياء التي اشتريناها (الصور والستائر وقطع الأثاث) قد وُضِعت في أماكنها، وقالت إيللي فجأة: نحن لم نُطلق على البيت اسماً بعد، ولن نستطيع أن نسميه «قصر الأبراج» فقد كان اسماً سخيفاً. ما هو ذلك الاسم الآخر الذي ذكرته لي يا مايك؟ أرض الغجر... أليس كذلك؟

فقلت بحدّة: لا أريد أن أطلق عليه هذا الاسم؛ فهو لا يروق لي.

وتدخّل سانتونيكس فقال: هو معروف بهذا الاسم بالمنطقة.

وأخذنا مجلسنا -بعد ذلك- في الشرفة، نتابع بأعيننا منظر الشمس وهي تغيب خلف الأفق ونبحث عن أسماء تليق بالمنزل، وكانت لعبة جميلة بدأناها في نوع من الجدية ثم راحت تتوارد على أذهاننا شتى الأسماء مثل: آخر المطاف، بهجة القلب، منظر البحر الجميل، بيت الصنوبر...

ثم خيم الظلام فجأة وجاء معه البرد، فدخلنا ولم نسدل الستائر بل اكتفينا بأن أغلقنا النوافذ، وكنا قد أتينا معنا ببعض المأكولات نظراً إلى أنه كان من المفروض أن يحضر الخدم في اليوم التالي، وقالت إيللي: لا ريب أنهم سيكرهون البيت نظراً لوجوده في مكان منعزل، وقد لا يرضون بالإقامة فيه.

فقال سانتونيكس: إن حدث هذا فما عليكِ سوى مضاعفة أجرهم.

وكنا قد أتينا ببعض الفطائر والجبن والجمبري فجلسنا حول المائدة ونحن نضحك ونتبادل الحديث مع الأكل، حتى سانتونيكس نفسه بدأ يتدفق حيوية وانفعالاً، وومضت عيناه ببريق الاهتمام الشديد.

ثم وقع الأمر فجأة؛ فقد اندفع حجر صغير من خلال زجاج النافذة ووقع على المائدة فأصاب قدحاً تناثرت شظاياه وجرحَت إحداها زوجتي!

وجلسنا لحظة مصعوقين لا نبدي حراكاً، ثم نهضتُ واقفاً وهرعت إلى النافذة ففتحتها وخرجت إلى الشرفة، ولكنني لم أر أحداً! فعدت إلى الغرفة والتقطت ممسحة وانحنيت فوق زوجتي ومسحت نقطة من الدم تسيل فوق خدها وقلت: إنه جرح بسيط يا عزيزتي.

والتقت عيناي بعينَي سانتونيكس في حين قالت: ولماذا يفعلون ذلك؟

ارتسمَت على ملامحها علامات الحيرة والدهشة فقلتُ: لا ريب أنهم بعض الصبية الأشقياء الذين شاهَدوا النور فطاب لهم إزعاجنا. من حسن حظك حقاً أنهم قنعوا بإلقاء هذا الحجر الصغير فقد كان في مقدورهم إطلاق بندقية هواء مضغوط أو ما هو من هذا القبيل.

- ولكن لماذا يفعلون هذا بنا؟ لماذا؟

فأجبت: لا أعلم! شغب أطفال.

فنهضَت فجأة وقالت: أنا خائفة، خائفة.

قلت: سنهتم بهذا الشأن غداً فنحن لا نعرف شيئاً عن جيراننا بعد.

قالت إيللي: أيمكن أن يكونوا قد فعلوا هذا لأننا أثرياء وهم فقراء؟

لم توجِّه إليّ هذا القول وإنما وجهته إلى سانتونيكس كما لو كان في مقدوره أن يرد على سؤالها هذا خيراً مني، فقال سانتونيكس في بطء: لا، لا أظن أن هذا هو السبب.

قالت إيللي: ولكنهم يكرهوننا، يكرهونني أنا ومايك. لماذا؟ ألأننا سعيدان؟

وللمرة الثانية هز سانتونيكس رأسه، فقالت إيللي (كما لو كانت تؤمِّن على قوله): لا، هناك سبب آخر، سبب آخر لا ندري عنه شيئاً. أرض الغجر! كل مَن يقيم هنا مكروه، فلعلهم يفلحون في آخر الأمر ويطردوننا نحن أيضاً.

ناولتُها كوباً من العصير وأنا أقول متوسلاً: لا تنطقي بمثل هذا الكلام يا عزيزتي، اشربي هذا. إن ما حدث شيء بغيض حقاً ولكنه عمل صبياني متهور. ثم أضفتُ: لن ندعهم يتغلبون علينا، سأسهر عليكِ وأحرص على ألاّ يصيبك مكروه.

وتحولَت إلى سانتونيكس مرة أخرى وقالت: لا ريب أنك تعرف خيراً منا؛ فقد كنتَ هنا تقوم ببناء البيت، ألم يُفصِح لك أي شخص عن أي شيء ما؟ هل حاول أحد إيقاف العمل؟

فأجاب سانتونيكس: إن المرء يتصور أحياناً أشياء غريبة.

- إذن فقد وقعت أشياء ما؟

- إن الحوادث تقع دائماً عند بناء البيوت، ومع ذلك فلم يحصل شيء جِدّي، فقد سقط رجل من فوق السلم مرة وأصابت كتلة خشبية رجلاً آخر، ودخلت قطعة صغيرة من الخشب في إصبع ثالث فتورّم بشكل مخيف.

- ألم يقع شيء آخر غير هذا، أعني شيئاً يمكن أن يكون له معنى خاص؟

فأجاب سانتونيكس: لا، وأقسم لكِ على هذا.

فتحولَت إيللي إليّ وقالت: هل تذكر تلك المرأة الغجرية يا مايك؟ تلك المرأة العجوز التي التقينا بها في ذلك اليوم وكيف أنها حذرتنا من الإقامة هنا؟

- ولكنها امرأة مخبولة لا تتمتع بكامل قواها العقلية.

فقالت إيللي: لقد بنينا منزلاً في أراضي الغجر وفعلنا عكس ما نصحتنا به بالذات. وضربت الأرض بقدمها وتابعَت تقول: لن أدعهم يقصوننا عن هذا المكان، لن أدع أحداً يقصيني عن هذا البيت.

فقلتُ: لن يرغمنا أحد على مغادرة هذا المكان، سنكون سعيدين هاهنا.

هل كنت بقولي هذا أتحدى القدر!

* * *

الفصل الثالث عشر

هكذا بدأت حياتنا في أراضي الغجر، فلم نجد اسماً آخر لكي نطلقه على البيت وتحدّد كل شيء في الليلة الأولى التي قضيناها به، فقد قالت إيللي: سندعوه أراضي الغجر، لا شيء إلا تحدياً لهم، ألا توافقني على هذا؟ إنه بيتنا، وهذه أراضينا نحن، وليذهب إنذار الغجرية إلى الجحيم.

في اليوم التالي استردّت بشاشتها ومرحها، وسرعان ما انشغلنا بإجراءات الإقامة والتعرف بجيراننا. ومضينا أنا وزوجتي إلى الكوخ الذي تقيم فيه المرأة الغجرية، وكنت أتمنى أن نجدها في بيتها؛ فالمرة الوحيدة التي رأتها إيللي فيها كانت حين قرأت بختها، ولكن الكوخ كان موصداً. وسألتُ جارة لها عما إذا كانت قد ماتت، إلا أن المرأة هزت رأسها وقالت: لا ريب أنها مضت إلى مكان ما، فهي تختفي من وقت لآخر. إنها امرأة غجرية حقاً؛ ولهذا السبب بالذات لا يمكنها البقاء مدة طويلة في مكان واحد، فهي تغادر بيتها من وقت لآخر ولا أدري أين تذهب. ولكنها لا تلبث أن تعود بعد ذلك. وتابعَت تقول وهي تحاول إخفاء فضولها: أظنكما أتيتما من ذلك البيت الجديد فوق التل؟... أعني الذي تم بناؤه حديثاً؟

- هذا صحيح، انتقلنا إليه الليلة الماضية.

- إنه مكان جميل؛ فقد ذهبنا جميعاً لرؤيته أثناء تشييده، ولكنه يبدو شديد التناقض مع الأشجار الكثيفة التي تحيط به. وتابعَت تقول مخاطبة إيللي في شيء من الحياء: سمعنا أنكِ أمريكية، فهل هذا صحيح؟

فأجابتها إيللي: نعم، أنا أمريكية، أو -على وجه الدقة- كنتُ أمريكية، ولكنني متزوجة الآن برجل إنجليزي؛ وبهذا أصبحت إنجليزية.

- وهل تنوين الإقامة والعيش هنا؟

- هذا هو ما ننويه فعلاً.

قالت في لهجة الشك: حسناً، أرجو أن تروق لكما الإقامة هنا.

- ولماذا لا تروق لنا؟

- لأن المكان منعزل كما تعرف، والناس لا يحبون الإقامة عادة في الأماكن المنعزلة بين مجموعة ضخمة من الأشجار.

تمتمت إيللي قائلة: أرض الغجر؟

- إذن فأنت تعرفين الاسم الذي يطلقونه على المكان؟ ومع ذلك فإن البيت الذي كان قائماً عليها كان يُعرَف باسم «الأبراج»، ولا أدري لماذا يطلقون عليه هذا الاسم مع أنه لم يكن فيه ولا برج واحد... في عهدي أنا على الأقل.

قالت إيللي: لم يرق لي اسم الأبراج فهو اسم على غير مسمى، وأظن أننا سندعوه «أراضي الغجر».

فقلتُ: يجب أن نُخطِر مصلحة البريد بذلك وإلا فلن تصلنا أية رسائل.

- نعم، لن تصلنا أية رسائل حقاً.

- ألا ترين معي يا إيللي أن الأمر سيكون رائعاً وجميلاً حقاً لو لم تأتنا رسائل ما؟

قالت إيللي: ولكن ذلك قد يسبب لنا تعقيدات كثيرة، منها أن الفواتير لن تصلنا وبالتالي لن نستطيع تسديدها.

- ألن يكون هذا شيئاً رائعاً؟

- لا، لن يكون كذلك أبداً؛ فسيهرع الدائنون الواحد بعد الآخر ولن يروق لي ذلك، ثم إنني أتلهف لأنباء غريتا.

- دعي غريتا وشأنها الآن وتعالي نستكشف المكان سوية.

* * *

وهكذا استكشفنا كنجزتون بيشوب. كانت قرية جميلة وأهلها قوم ظرفاء، وكان المكان هادئاً يدعو للاطمئنان، لكن الخادمَين اللذين ألحقناهما بخدمتنا لم يرق لهما ذلك فاضطررنا أخيراً إلى أن ندبر لهما سيارة من سيارات الأجرة تقلهما إلى مدينة سياحية أو إلى ماركيت شارويل أيام عطلتهما الأسبوعية.

لم تطب لهما الإقامة في البيت، ولم يكن مبعث ذلك الخرافات الشائعة، فقلت لإيللي: إن أياً منهما لن تجرؤ على القول بأن البيت ملعون لأنه حديث البناء.

ووافقتني إيللي قائلة: نعم، فليس البيت هو السبب وإنما هو شيء آخر؛ إنه ذلك الطريق المتعرج القائم بين الأشجار وتلك البقعة المظلمة من الغابة التي ظهرت منها السيدة لي فجأة فأفزعتني.

- حسناً، سنقطع هذه الأشجار في العام القادم ونزرع بدلاً منها أحواضاً من الورود والأزهار.

وطفقنا نرسم الخطط. وأقبلت غريتا وقضت معنا عطلة الأسبوع وأعجبها البيت كثيراً، وكانت من اللباقة بحيث قالت -بعد نهاية عطلة الأسبوع- إنه لا يصح لها أن تزعج عروسين أكثر من ذلك وإنه يجب أن تعود إلى عملها على كل حال.

وبعد أسبوعين من إقامتنا كنا قد تعرفنا بأهالي كنسنجتون بيشوب، فأقبل الميجور فيلليبوت لزيارتنا (وهو رجل دمث الأخلاق في الستين من عمره) وجلس يتبادل الحديث معنا، ثم تشعب الحديث فتكلمنا عن البيت وعن القصص التي تدور حول أراضي الغجر فقال: أرى أنك تعرف الاسم الذي يطلقونه عليه في البلد كما تعرف الشائعات التي تدور عنه.

فقلت: سمعت الكثير عن هذه الخرافات، وأعترف أن السيدة لي العجوز قد أنذرتنا.

قال فيلليبوت: يا لإستر العجوز المسكينة! أظنها أزعجتكما؟

- أهي مخبولة؟

- ليس بالقدر الذي تريد أن يعتقده الناس عنها. أشعر أنني مسؤول عنها إلى حد ما؛ فلقد دبرتُ لها ذلك الكوخ... ومع ذلك فلم تُبدِ أي شكر أو امتنان. إنها امرأة عجوز لكنها تتسبب في الإزعاج أحياناً.

- هل تقرأ الطالع؟

- في بعض المناسبات. هل قرأت لكما طالعكما؟

قالت إيللي: لا أدري إن كانت قد قرأت لي طالعي حقاً؛ فقد كان أقرب للإنذار منه إلى قراءة الطالع.

قال الميجور فيلبيوت وقد ارتفع حاجباه: هذا أمر غريب؛ فهي تتنبأ بالأحداث السارة عادة: شاب أجنبي وسيم، حفلة زواج ونصف دستة من الأولاد، حظ سعيد، ومال يأتيك يا سيدتي الجميلة!

ونطق بالكلمات الأخيرة وهو يقلّد الغجرية العجوز ثم استطرد يقول: لقد اتخذ الغجر من هذه الناحية موطناً لهم؛ فقد كانوا يعسكرون فيها وأنا صبي صغير، وأظن أنني أولعت بهم منذ ذلك الوقت؛ فهم قوم على ما يرام طالما ابتعدوا عن كل ما له صلة بالجريمة، وكان أغلب زملائي في المدرسة -وأنا صبي- من الأولاد الغجر، فأسرتي نفسها مدينة بالكثير للسيدة لي؛ فقد أنقذَت حياة أخ لي وهو صغير فانتشلته من بركة قبل غرقه.

في تلك اللحظة أتيت بحركة خرقاء فأوقعتُ كأساً من فوق المنضدة فوقع وتناثر قطعاً صغيرة، وانحنيت لأجمع الشظايا وعاونني الميجور فيليبوت، وقالت إيللي: أظن أن السيدة لي امرأة غير شريرة، وإنها لحماقة مني أن خفت منها.

- خفتِ منها؟ هل بلغ الأمر هذا الحد؟

فأسرعتُ أقول: ليس من المستغرَب أن يتملكها الخوف؛ فقد كانت كلمات السيدة لي تهديداً أكثر مما هي إنذار.

- تهديد؟!

نظر الميجور فيليبوت إلينا وهو غير مصدِّق!

- حسناً، هكذا بدا الأمر لي، ثم وقع لنا في أول ليلة قدمنا فيها للإقامة هنا حادث غريب.

وحدثتُه عن الحجر الصغير الذي أُلقي علينا من خلال النافذة فقال: هذا عمل صبياني شرير، ولا أدري حقاً كيف يقع مثل هذا الأمر؛ فالصبية في بلدنا معروفون بالاتزان والهدوء. هذا شيء يدعو إلى الأسف حقاً.

ونظر إلى إيللي مستطرداً: يؤسفني حقاً أنكِ شعرت بالخوف؛ فمن البشاعة حدوث هذا في الليلة الأولى لقدومكما.

فقالت إيللي: لقد نسيتُ هذا الحادث الآن، فلم يكن الأمر كذلك وإنما هو يتعلق بحادث آخر وقع فيما بعد.

ذكرتُ للميجور فيليبوت ما حدث بعد ذلك؛ وهو أننا

وجدنا أمام البيت في اليوم التالي عصفوراً ميتاً اخترق قلبَه خنجرٌ وبجانبه قصاصة من الورق عليها هذا الكلمات: «إن كنتما تنشدان الحياة فغادرا المكان». فظهر الغضب على وجه فيليبوت عندئذ وقال: كان يجب أن تبلغ الشرطة بذلك.

- لم نشأ ذلك، فلو فعلنا...

قاطني فيليبوت قائلاً: يجب استجلاء هذا الأمر والعمل على إيقافه. وتغيرت سحنته وظهرت عليه أمارات المسؤولية وقال: كان من الممكن أن نعزو الحادث إلى المزاح، ولكن لو كان الأمر كذلك فإنه يكون عندئذ مزاحاً سمجاً ثقيلاً. وتابع يقول كما لو كان يحدِّث نفسه: يبدو أن هناك من يحقد عليكما، أو يحقد على واحد منكما بالذات.

فقلت: لا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك فنحن غريبان عن هذه الناحية.

قال فيليبوت: سأتحقق من ذلك. ثم نهض واقفاً وهو يردد البصر حوله ثم قال: أنا أحب بيتكما هذا. ما ظننت أنني سأميل إليه فأنا -كما تعلمان- من الجيل القديم وأحب البيوت القديمة لأن البيوت الحديثة لا تروق لي؛ فهي تبدو بحجراتها كعلب الكبريت، ولكنني أحب بيتكما هذا فهو على الرغم من أنه حديث البناء إلا أن حجراته فسيحة منيرة، وهو يطل على منظر ساحر بديع فوق ذلك. من الذي صممه؟ أمهندس إنجليزي أم أجنبي؟

حدثته عن سانتونيكس فقال: أظنني قرأت شيئاً عنه في

مجلة «البيت والبساتين» ورأيت بعض صوره ورسوماته.

فقلت له إنه مهندس معروف فقال: أود لو ألتقي به، وإن كنت لا أدري ماذا سأقول له؛ فأنا لست فناناً. ثم دعانا لزيارته وتناول الغداء معه ومع زوجته ذات يوم وأردف يقول: وسنرى عندئذ هل يروق لكما بيتي؟

فسألته: أهو بيت قديم؟

- لقد بُني في سنة ١٧٢٠ (وهو الوقت الذي اشتهر فيه فن البناء الرفيع) على طراز الملكة إليزابيث، ثم هُدِم في سنة ١٧٠٠ وبُني مكانه بيت جديد.

- أنت تقيم هنا منذ وقت طويل إذن؟

- نعم، نحن نعيش هنا منذ عهد الملكة إليزابيث، نتأرجح بين شقي الرحى؛ أحياناً نعيش في رخاء كبير وأحياناً يتخلى الحظ عنا فنبيع الأرض حين تسوء بنا الأمور، ثم نعود فنشتريها حين تتحسن. ويسرني أن أريكما بيتي. وتابع يقول وهو ينظر إلى إيللي: إن الأمريكيين يحبون البيوت القديمة. ثم أردف يقول وهو يخاطبني: أما أنت فأعتقد أنك لن تحبه كثيراً.

- لا يمكن أن أدّعي فأقول إنني أحب الأشياء القيمة.

* * *

ذهبنا في بداية الأسبوع التالي لزيارة آل فيليبوت. كانا يقيمان في بيت مبني على الطراز الجورجي، وكان آل فيليبوت قد دعوا بعض الجيران كي يتم التعارف بيننا وبينهم، فكان

هناك الطبيب شو والقس وامرأة متوسطة العمر، كما كان هناك فتاة طويلة القامة مليحة الوجه سمراء تُدعى كلوديا هارد كاسل، وقد انسجمت مع إيللي كل الانسجام.

وكان يوماً ممتعاً، وبينما كنا نتنزه في الحديقة لحقَت بي كلوديا هارد كاسل وقالت في اقتضاب: لقد سمعتُ عنك من أخي.

نظرتُ إليها مشدوهاً؛ فلم أتصور أنه من الممكن أن أعرف أخاً لكلوديا هارد كاسل وقلت: هل أنتِ واثقة؟

بدا أن سؤالي هذا أطربها فقالت: هو الذي بنى بيتكما.

- هل تعنين أن سانتونيكس أخوك؟!

- هو أخ غير شقيق. أنا لا أعرفه معرفة وثيقة لأننا نلتقي نادراً.

- إنه مدهش.

- هذا رأي البعض فيه.

- ألا تعتقدين ذلك؟

- لستُ أدري لأن فيه نقيضين؛ جاء عليه وقت كان يهبط الدرك هبوطاً شنيعاً فلم يرضَ أحد أن يكون له معه أي شأن، وفجأة تغيّر كل شيء وعاد يصعد السلم من جديد بصورة غريبة، فأصاب نجاحاً باهراً. بدا كأنه أصبح موهوباً بغتة.

قلت: هو ذلك. ثم سألتها عندئذ إذا كانت قد شاهدت بيتنا فردّت: لا، لم أره منذ تم بناؤه.

فقلت لها إنه يجب أن تأتي كي تراه فردّت: ولكنني أحب أن أقول لك إنه لن يروق لي لأنني لا أحب البيوت الحديثة؛ فطرازي المفضل هو طراز الملكة آن.

وقالت إنها ستعمل لانضمام إيللي إلى نادي الجولف وإنهما سيركبان الجياد معاً، وستعمل كذلك على أن تشتري إيللي جواداً، بل ربما تشتري أكثر من جواد! وهكذا توثقت بينها وبين إيللي أواصر الصداقة.

وقال الميجور فيليبوت كلمة أو كلمتين عن كلوديا وهو يريني إصطبلاته فقد قال: إنها فارسة ممتازة، ومما يؤسَف له أنها أفسدت حياتها.

- وكيف ذلك؟

- لقد تزوجَت برجل يكبرها بأعوام كثيرة، رجل أمريكي اسمه لويد، ولكن زواجها فشل فانفصلا سريعاً واستردت اسمها وهي فتاة، ولا أظنها ستتزوج ثانية فقد أصبحت تكره الرجال، وهذا أمرٌ يؤسَف له.

* * *

قالت إيللي تخاطبني ونحن في طريق العودة: يوم جميل وقوم ظرفاء. سنكون سعيدين هنا، أليس كذلك يا مايك؟

- بلى، سنكون سعيدين.

ومررتُ بالبيت حتى بلغتُ الشرفة ووقفت لحظة بجوار النافذة. كانت إيللي تترنم بإحدى الأغاني المحبوبة ولا أعرف

بأي اسم أدعوها، كانت تنطق بالكلمات في رقة كما لو كانت تحدث نفسها، وانحنت برأسها فوق القيثارة وراحت أصابعها تجري على أوتارها في رفق. كانت تقول:

خُلِق الرجل للسعادة والشقاء.
وحين يدرك هذا حق الإدراك،
يعبر الدنيا في أمان.
كل ليل وكل صبح،
يولد البعض للبؤس والشقاء.
كل صبح وكل ليل،
يولد البعض للسعادة والهناء،
ويولد البعض لليل طويل سرمدي البقاء.

ثم رفعَت عينيها فرأتني، فقالت: لماذا تنظر إليّ هكذا يا مايك؟

- وكيف تريننى أنظر إليك؟

- أراكَ تنظر إليّ كما لو كنتَ تحبني.

- ولكنني أحبك طبعاً يا عزيزتي، وكيف تريدين أن أنظر إليكِ بغير ذلك؟

- ولكن فيمَ كنتَ تفكر عندئذ؟

أجبت ببطء وبصدق: كنت أفكر فيكِ كما رأيتكِ أول مرة واقفة في ظل شجرة من أشجار الشوح.

نعم، كنتُ أذكر أول مرة رأيتكِ فيها يا إيللي، إنني أفكر في دهشة وانفعال في تلك اللحظة!

ابتسمَت لي وعادت تشدو في رقة وعذوبة:

كل ليل وكل صبح،
يولد البعض للبؤس والشقاء.
كل صبح وكل ليل،
يولد البعض للسعادة والهناء،
ويولد البعض لليل طويل سرمدي البقاء.

* * *

إن المرء لا يستوعب اللحظات الحقيقية في حياة الغير إلا بعد فوات الوقت، وكانت اللحظة التي انصرفنا فيها من بيت فيليبوت في طريقنا إلى بيتنا ونحن في منتهى السعادة إحدى هذه اللحظات، لكنني لم أدرك ذلك إلا فيما بعد.

* * *

الفصل الرابع عشر

من الغريب في دنيانا هذه أن الأمور لا تتم كما يتوقع المرء ويشتهي؛ فقد انتقلنا إلى بيتنا وفي نيتنا أن نعيش فيه وحدنا كما فكرتُ ودبرتُ، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه؛ فزوجة أبي إيللي اللعينة أمطرتنا بالرسائل والبرقيات التي تطلب فيها من إيللي أن تكون دائمة الصلة بالسماسرة، فقد أعجبها بيتنا أيما إعجاب بحيث فكرَت أن يكون لها هي الأخرى بيت بإنجلترا قائلةً إنها تحب أن تقضي فيها شهرين من كل سنة. ولم تلبث أن أقبلت هي بنفسها عقب آخر برقية، وكان لا بد لنا من أن نطوف بها أماكن كثيرة في الأنحاء بحثاً عن بيت يروق لها، ووقع اختيارها أخيراً على بيت يبعد عنا بنحو خمسة عشرة ميلاً.

وأثناء هدنة بين هذه المشاكل اكتشفت أنا وإيللي ذلك الكوخ الذي أطلقنا عليه فيما بعد اسم «الخلوة»، وقلتُ: لن ندع كورا تعرف عن هذا المكان شيئاً طبعاً.

وذات يوم بعد أن قضينا وقتاً ممتعاً في «الخلوة» -وكانت كورا قد قدمَت ثم عادت- خلونا فيه وحدنا ونحن نرجو ألاّ يعكر أحدٌ صفونا بعد ذلك. وكانت إيللي تثب أمامي في رشاقة

وخفة، ولكنها لم تلبث أن تعثرت في جذع شجرة فوقعت والتوى كاحلها، فأقبل الطبيب شو وقال إنه التواء بسيط وإنها بحاجة إلى راحة تامة لمدة أسبوع على الأقل كي يزول أثره. فأرسلت إيللي عندئذ في طلب غريتا، ولم أستطع الاعتراض؛ فلم يكن هناك أحد حقاً لكي يعنى بشؤون البيت (أعني امرأة) لأن الخادمين اللذين يقومان على خدمتنا كانا خاملين لا نفع فيهما، ومهما يكن من أمر فقد أرادت زوجتي غريتا وكان لا بد لغريتا أن تأتي، وقالت إيللي تخاطبني: أظنك لا تمانع في أن تبقى غريتا معنا بعض الوقت طبعاً.

فلم يسعني إلا القول: نعم، لا مانع لدي.

ويبدو أن غريتا قد أزعجتها صحة إيللي فخاطبتني قائلة: إنها ليست قوية الجسم كما تعلم.

- إنها على ما يرام، إن صحتها على ما يرام.

- كلا يا مايك، إنها ضعيفة البنية رقيقة الصحة.

وحين أقبل الطبيب شو بعد ذلك فحص كاحل إيللي وقال لها إنها تستطيع السير عليها ثانية بشرط أن تربطها، فقلت في رعونة: أليست ضعيفة البنية أو رقيقة الصحة أيها الطبيب شو؟

نظر الدكتور شو إليّ كمن أُصِيب في كبريائه وقال: مَن الذي يقول إنها ضعيفة؟ إنها على أتم ما يرام، وفي مقدور كل امرئ أن تلتوي كاحله.

- أنا لا أقصد كاحلها، وإنما أتساءل إن كانت ضعيفة القلب أو مصابة بشيء من هذا القبيل.

نظر إليّ من فوق نظارته وقال: دعك من الأوهام أيها الشاب. مَن الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟ أنت لست من ذلك النوع الذي تزعجه أمراض النساء.

- لقد نقلتُ لكَ رأي الآنسة أندرسون.

- آه، الآنسة أندرسون. وما الذي تعرفه عن ذلك؟ هل لها دراية طبية تسمح لها بمثل هذا القول؟

- لا.

- إن زوجتك امرأة ثرية جداً، هذا إن صدقنا الشائعات المحلية، لأن الناس عادة ما يعتبرون الأميركيين أثرياء.

- إنها ثرية.

- حسناً، يجب أن تتذكر ما سأقوله لك؛ إن النساء من عادتهن استشارة كثير من الأطباء، ولا يجد هؤلاء -تبريراً لذلك- مناصاً من تزويدهن بالأقراص والمنبهات والحبوب المنشطة والمهدئة وأشياء من الأفضل ألاّ يتناولنها. إن القرويات الفقيرات يتمتعن بصحة أفضل لأنه ليس هناك مَن يهتم بصحتهن بأي حال من الأحوال.

- إنها تتناول بعض الأقراص.

- سأفحصها إن أردتَ وسأرى أي نوع من الأقراص تتناول، وأستطيع القول لكَ منذ الآن إنني طالما نصحتُ أناساً كثيرين بإلقاء كل هذه الحبوب في سلة المهملات. ثم خاطب غريتا قبل أن ينصرف فقال: لقد طلب مني السيد روجرز القيام

بفحص عام فلم أستطع أن أجد شيئاً يمكن أن نستند إليه، أظن أن كثيراً من الرياضة والهواء الطلق قد يفيدها. ما الأدوية التي تتناولها؟

– إن لديها أقراصاً تتناول بعضاً منها حين تحس بالتعب أو الإرهاق، وأخرى كي تنام.

ومضت (هي والطبيب شو) لإلقاء نظرة على الوصفات الطبية؛ فابتسمَت إيللي ابتسامة خفيفة وقالت: أنا لا أتناول كل هذه الأدوية أيها الطبيب شو، لا أتناول منها إلا حبوب الحساسية.

ألقى شو نظرة على الحبوب وقرأ الوصفة الخاصة بها ثم قال: ليس هناك أي ضرر من تناولها. ثم انتقل لوصفة أخرى خاصة بالأقراص المنومة وقال: هل يتعذر عليك النوم؟

– لم يحدث لي ذلك منذ أن أقمتُ بالريف، لا أذكر أنني أخذت قرصاً منوماً واحداً منذ انتقالي إلى هنا.

قال: حسناً، هذه علامة طيبة. ثم ربَّتَ بيده على كتفها وقال: ليس بكِ شيء يا عزيزتي، لا شيء أكثر من إرهاق بسيط في بعض الأحيان وهذه الأقراص مهدّئة لا غير، وكثير من الناس يتناولونها في أيامنا هذه فهي ليست مضرَّة على الإطلاق. استمري في تناولها إن شئتِ ولكن لا تقربي الأقراص المنومة.

وقلتُ أخاطب إيللي معتذراً: لا أعرف لماذا أزعجتُ نفسي، أظن أن غريتا هي السبب.

قالت إيللي: أظن أن غريتا تزعج نفسها بشأني بالرغم من أنها لا تتناول أي دواء. سنقوم بتنظيف عام يا مايك ونتخلص من كل هذه الأدوية تقريباً ونلقي بها في سلة المهملات.

* * *

ولم تلبث أن اشتدت أواصر الصداقة بين إيللي ومعظم جيراننا، وجاءت كلوديا هارد كاسل مراراً، وتنزهتا مراراً على ظهرَي جواديهما في مناسبات عديدة، ومضت كلوديا وإيللي مراراً إلى السوق معاً حيث اشترت إيللي جواداً كستنائي اللون اسمه كونكرر.

وتوسلتُ إلى إيللي أن تتوخى الحذر حين تركب وحدها، ولكنها ردّت عليّ ضاحكة: أنا أركب الجياد منذ أن بلغتُ الثالثة من عمري.

وهكذا أخذَت تخرج للنزهة ممتطية جوادها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، واعتادت غريتا أن تسوق السيارة وأن تمضي بها إلى السوق فتشتري ما تحتاج إليه. وذات صباح قالت غريتا ونحن نتناول طعام الإفطار: لقد خرجَت امرأة عجوز ذات سحنة مخيفة هذا الصباح ووقفَت في عرض الطريق فكدت أن أدوسها. كانت سليطة اللسان.

- ماذا؟ كانت ماذا؟!

كانت إيللي تصغي إلينا سوياً ولكنها لم تنطق بكلمة، وخطر لي أنها انزعجت كل الانزعاج. واستطردت غريتا: عليها اللعنة، لقد هدَّدتني!

فسألتها في حدة: هدَّدَتِك؟

- حسناً، قالت لي أن أغادر المكان وقالت: "هذه أرض الغجر، فعودوا من حيث أتيتم. عودي أنتِ ومن معك، عودوا من حيث أتيتم إذا كنتم تنشدون الأمان". ورفعَت قبضتها وهزتها في وجهي ثم عادت تقول: لو ألقيتُ عليكم لعنتي فلن تعرفوا طعم السعادة والهناء أبداً؛ أتشترون أرضنا وتطردوننا منها وتبنون فوقها بيوتاً؟ إننا لا نريد بيوتاً حيث يجب أن تكون هناك خيام.

وقالت غريتا كلاماً أكثر، وقالت إيللي تخاطبني -فيما بعد- وهي عابسة: هذا يبدو بعيد الاحتمال، ألا تظن ذلك يا مايك؟

- أظن أن غريتا قد بالغَت بعض الشيء.

وعادت إيللي تقول: يبدو أن قولها بعيد عن الحقيقة على كل حال، وإنني أتساءل إذا لم تكن غريتا قد اختلقت الجزء الكبير منه؟

قلتُ في تأمل: ولماذا تختلق شيئاً ما؟

ثم سألتُها بحدّة: ألم تعترض طريقك وأنت راكبة الجواد؟

- المرأة الغجرية؟ لا.

- هل أنتِ واثقة؟

- أظن أنني لمحتها واقفة بين الأشجار تحدق من بعيد، ولكنها لم تقرب مني أبداً.

ولكنها عادت ذات يوم من إحدى نزهاتها شاحبة اللون وهي تنتفض؛ فقد خرجَت عليها المرأة من بين الأشجار، وعندها لوت إيللي عنان جوادها ووقفت لكي تتحدث بكلمات غير مفهومة، وقالت إيللي: كنتُ غاضبة هذه المرة فقلت لها: ماذا تريدين منا؟ هذه الأرض ملك لنا، إنها أرضنا وهذا بيتنا.

وعندئذ ردَّت عليها المرأة قائلة: لن تكون لكِ أبداً، ولن تكون ملكاً لكِ، لقد أنذرتُك. إنني أرى الموت وأرى البيت الكبير الذي بنيتموه ينهار.

فقلتُ حانقاً: يجب أن نوقف هذه المرأة عند حدها.

لم تضحك إيللي هذه المرة، وبدا عليها الجزع وعلى غريتا كذلك. أما أنا فقد مضيت إلى القرية رأساً فذهبتُ إلى قسم الشرطة. كنت أعرف شرطيّا يُدْعَى كيني، وهو رجل عريض الجسم سريع الإدراك، وأصغى إليّ ثم قال: آسف لهذا الإزعاج يا سيد روجرز، إنها امرأة عجوز جداً أصبحت تسبب لنا ضيقاً كبيراً، ولكنها لم تتسبب لنا في أية مشكلة حقيقية حتى الآن، وعلى كل حال سأتحدث إليها وأنصحها بالابتعاد عنكم.

- إذا تكرمت.

وتردَّد دقيقة ثم قال: لا أحب أن أوعز بأي شيء يا سيد روجرز، ولكن ألا يمكن أن يكون في هذه الناحية من يحقد عليك وعلى زوجتك؟

- لا أعتقد ذلك. لماذا؟

– إن السيدة لي العجوز تنفق المال بكثرة هذه الأيام، ولا أدري من أين أتاها ذلك.

– ماذا تريد أن تقول؟

– لعل بعضهم يدفع لها، أعني شخصاً يريد أن يبعدكما عن هنا؛ فلقد أخذَت نقوداً من شخص في القرية لكي تفزع أحد الأهالي وتجبره على مغادرة البلد، واستخدمَت في سبيل ذلك التهديد والوعيد والتنبؤ بالحظ السيئ، وأهالي القرية قوم يؤمنون بالخرافات في العادة!

ولكني لم أقبل هذه الفكرة، وأشرتُ لكيني بأننا غريبان عن هذه القرية ولا أظننا استوجبنا عداء أحد.

* * *

وعدت إلى البيت موزَّعاً بين الحيرة والجزع، وما كدت أبلغ الشرفة حتى سمعتُ صوت قيثارة إيللي، ورأيت شخصاً طويل القامة واقفاً بجوار النافذة ينظر إلى الداخل يستدير ويأتي نحوي، وخطر لي في بادئ الأمر أن هذا الشخص قد يكون الغجرية العجوز، ولكنني لم ألبث أن شعرتُ بارتياح كبير حين عرفتُ فيه سانتونيكس، وقلت وأنا أتنهد: أهو أنت؟ مِن أين أتيتَ؟! إننا لم نسمع عنك منذ وقت طويل.

لم يردّ عليّ مباشرة، وإنما أمسك بذراعي وابتعد بي عن النافذة وقال: إذن فهي هنا. إن هذا لا يدهشني، فقد كنتُ أعرف أنها ستأتي إن عاجلاً وإن آجلاً. لماذا تركتها تأتي؟ إنها شديدة الخطر، كان يجب أن تدرك ذلك.

- هل تعني إيللي؟

- لا، أنا لا أعني إيللي وإنما أعني تلك المرأة الأخرى... ما اسمها؟ غريتا؟

حدقتُ فيه فاستطرد: هل تعرف مَن هي غريتا؟ لقد جاءت كي تبقى، ولن تستطيع أن تتخلص منها أبداً.

فقلت حانقاً: لا أستطيع أن ألقي بها خارج البيت فهي صديقة إيللي، صديقتها الحميمة. فماذا أستطيع أن أفعل؟

قال سانتونيكس: لا شيء، أظنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً.

ونظر إليّ، وكانت نظرة غريبة! إن سانتونيكس رجل غريب الأطوار لا تدري أبداً ماذا يعني بكلماته! فقد قال لي: هل تعرف إلى أين يقودك طريقك يا مايك؟ ألديك أية فكرة عن ذلك؟ يبدو لي أحياناً أنك لا تعرف أي شيء.

- بل أعرف طبعاً؛ إن طريقي يقودني حيث أريد.

- حقاً؟ إنني لأعجب من ذلك وأتساءل إذا كنتَ تعرف حقاً ما تريد؟ أنا أخشى عليك من غريتا فهي أقوى منك. إنها من ذلك النوع القوي الذي يبلغ غرضه دائماً، ولقد قلتَ لي إنك لا تريدها هنا، ولكنها جاءت مع ذلك. لقد كنتُ واقفاً أراقبهما (هي وإيللي) وهما جالستان معاً، كانت تتبادل معها الحديث وكأنها في بيتها، فماذا يكون مِن أمرك أنت يا مايك؟ أتراك أنت الدخيل... أم لعلك لستَ دخيلاً؟

- أنت معتوه وتنطق بأشياء سخيفة! ماذا تعني بدخيل؟ أنا... أنا زوج إيللي.

- هل أنت زوج إيللي؟ أم أن إيللي زوجتك؟

- وما وجه الاختلاف؟

تنهد وتراخت كتفاه فجأة كما لو أن الحياة قد أفلتت منه وقال: أراني عاجزاً عن فهمك؛ فأنا لا أستطيع أن أحملك على الإصغاء إليّ ولا أستطيع أن أجعلك تفهم. يُخيَّل لي أحياناً أنني أفهمك وأنك لا تعرف شيئاً عن أي أحد آخر أحياناً. ثم استطرد: اسمع يا مايك، أنا مهندس معماري ممتاز، وهذا البيت أروع ما بنيتُ في حياتي كلها. لقد أردتَه أنت وإيللي كذلك كي تعيشا فيه معاً، ولقد تم لكما ما أردتما؛ فاطرد هذه المرأة الأخرى منه يا مايك قبل أن يسبق السيف العذل.

- وكيف تريد مني أن أقنع إيللي بذلك؟

قال سانتونيكس: إن هذه المرأة تفعل بكما ما تريد.

- لقد أخبرتُك أنني لا أحب غريتا وأنها تثير أعصابي؛ فقد وقع بيننا شجار عنيف أخيراً. إن طردها من هنا لن يكون بالأمر السهل.

- نعم، لن يكون طردها سهلاً.

قلتُ في غضب: هناك غجرية عجوز تبرز من خلف الأشجار وتتوعدنا بقبضتها بالويل والثبور وعظائم الأمور، وتنذرنا بأننا إذا لم نغادر هذا المكان فسيكون ذلك وبالاً

علينا، في حين أن هذا المكان كان يجب أن يكون عامراً بالخير والجمال.

كانت الكلمات الأخيرة غريبة، وخُيِّل إليّ أن شخصاً آخر غيري هو الذي نطق بها. قال سانتونيكس: نعم، كان يجب أن يكون كذلك، ولكن ما العمل وهناك روح شريرة قد استحوذَت عليه؟

- لا أظنكَ تؤمن بها حقاً؟

- أنا أؤمن بأشياء كثيرة غريبة؛ فأنا أعرف شيئاً عن الشر. ألم تدرك... بل ألم يخطر لكَ أنني (أنا نفسي) جزء من الشر؟ هكذا كنتُ دائماً، فأنا أعرف الشر كل المعرفة، أعرفه حين يكون قريباً مني، وإن كنتُ لا أعرف مكانه بالتحديد. إنني أريد أن يتطهر البيت الذي بنيته من الشر، فهل تفهم هذا؟

كان صوته ينذر بالتهديد، وعاد يقول: هل تفهم هذا؟ إن الأمر بالغ الأهمية بالنسبة لي. ثم تغيرت لهجته فجأة وقال: هلمَّ بنا، دعنا من هذا الحديث، هلمَّ بنا لكي نرى إيللي.

وهكذا دخلنا، ورحّبَت إيللي بسانتونيكس بسرور وابتهاج كبيرَين، وقالت إيللي إنها ترجو أن يبقى بضعة أيام لكنه هز رأسه وقال إنه لا بد له من الرحيل في اليوم التالي.

- هل هناك ما يشغلك؟ هل تقوم ببناء منزل جديد؟

أجاب بالنفي وقال إنه خرج لتوه من المستشفى، ثم أردف: لقد عالجوني هذه المرة أيضاً، ولكن يُحتمَل أن تكون آخر مرة.

- عالجوك؟! وكيف ذلك؟

- استخرجوا الدم الفاسد من جسدي واستبدلوه بدم طازج.

قالت إيللي وهي تنتفض: يا إلهي!

قال سانتونيكس: لا تقلقي، لن يقع لكِ أبداً.

- ولكن... لماذا وقع هذا لكَ أنت بالذات؟ يا للقسوة!

- ليس هناك أية قسوة كما تتصورين، فلقد سمعتُ ما كنتِ تنشدين منذ لحظات:

خُلِق الرجل للسعادة والشقاء.
وحين يدرك هذا حق الإدراك،
يعبر الدنيا في أمان.

وأنا الآن ذاهب في أمان لأنني أعرف لماذا خُلِقتُ، أما بالنسبة لكِ يا إيللي فيمكن أن نقول:

كل ليل وكل صبح،
يولد البعض للسعادة والهناء.

قالت إيللي: وددتُ لو أشعر بالأمان.

- ألا تشعرين بالأمان؟

- لا أحبُّ أن يهددني أحد أو أن يصب على رأسي لعنة.

- هل تقصدين الغجرية؟

- نعم.

- اطرحيها من ذهنك، اطرحيها عنكِ الليلة ولنكن سعداء، أطال الله في عمرك يا إيللي، وليشملني برحمته ويعجِّل بنهايتي بدون ألم. أتمنى لك حظاً سعيداً يا مايك.

ورفع رأسه نحو غريتا فسألَته: وماذا تتمنى لي أنا؟

فقال وفي صوته رنة من السخرية: أتمنى لكِ ما تشتهين، ولعله التوفيق!

* * *

غادر المنزل في صباح اليوم التالي، فقالت إيللي: ما أغرب أطوار هذا الرجل! أنا لم أفهمه أبداً.

- أنا نفسي لا أفهم أبداً نصف ما يقول.

- إنه يعرف أشياء.

- أتقصدين إنه يعرف المستقبل؟

- لا، لم أقصد هذا، وإنما قصدتُ أنه يعرف الناس. لقد أخبرتك مرة أنه يعرف الناس خيراً مما يعرفون هم أنفسهم. ثم أردفَت تقول في تفكير: ومع ذلك فهو لم يَرثِ لي.

فسألتُها: ولماذا يفعل؟

- لأن...

* * *

الفصل الخامس عشر

في عصر اليوم التالي وبينما كنتُ أسرع الخطى في بقعة مظلمة من الغابة، حيث تبدو أشجار الصنوبر أكثر تهديداً منها في أية بقعة أخرى، رأيت هيئة امرأة طويلة القامة تقف عند المنحنى؛ فتحولتُ عن الطريق في حركة غير إرادية ظناً مني أنها الغجرية العجوز، ولكنني لم ألبث أن توقفت فجأة حين عرفتها؛ فقد كانت هي أمي! كانت تقف هناك بقامتها الطويلة المتجهمة وشعرها الذي خطَّه المشيب.

قلت أخاطبها: يا إلهي! لقد أخَفتِني يا أماه، ماذا تفعلين هنا؟ هل أتيتِ لزيارتنا؟ لقد طلبتُ إليك المجيء أكثر من مرة، ألا تذكرين؟

ولم يكن هذا صحيحاً؛ فقد أرسلتُ إليها دعوة فاترة مرة واحدة، وكان هذا هو كل شيء، ولقد كتبتُ الدعوة بصيغة تجعلني أتأكد من أن أمي لن تقبلها؛ فلم أكن أريدها في بيتي، لم أكن أريدها أبداً. قالت: أنت على حق، ولكنني أتيت لزيارتكما أخيراً لأرى إذا كانت أمورك على ما يرام. إذن فهذا هو القصر الكبير الذي شيدتَه لنفسك.

نظرَت من فوق كتفي قائلة: إنه قصر كبير في الواقع.

وخُيِّل لي أنني ألمس في صوتها لمسة الاستهجان التي كنت أتوقعها منها فقلت: أتعنين أنه قصر كبير لا يليق بي؟

- لم أقل هذا يا بني.

- ولكن هذا هو ما يدور في رأسك؟

- أنت ما وُلدتَ لمثل هذا القصر يا ولدي، وليس من الخير أن تتعالى على مركزك في الحياة.

- لو أنني أصغيتُ إليكِ لبقيتُ في موضعي.

- كنتُ أعرف أنك ستقول لي هذا، ولكنني لا أجد خيراً في الطموح لأن نهايته مريرة.

- دعينا من هذا الهذر بالله عليكِ. تعالي، تعالي معي لكي تري البيت بنفسك، ولكِ أن تتعالي عليه أو أن تزدريه إذا أردتِ، ولكن حذارِ أن تشمخي بأنفك أمام زوجتي.

- زوجتُك؟ ولكنني قابلتُها قبل ذلك.

- ماذا تعنين بقولك هذا؟

- إذن فهي لم تقل لكَ؟

فسألتُها: ماذا؟!

- لقد جاءت لزيارتي.

سألتها مذهولاً: جاءت لزيارتك؟!

- نعم؛ جاءت ذات يوم وطرقَت الباب، ووقفَت به لا تبدي حراكاً وقد بدا عليها الذعر قليلاً. إنها فتاة جميلة وحلوة وترتدي ثياباً غالية، وابتدرتني قائلة: هل أنتِ أم مايك؟ فأجبتها بالإيجاب وسألتها: ومن أنتِ؟

قالت: أنا زوجته، لقد حضرتُ لكي أراك، فقد تأكدتُ أنه ليس من الصواب ألاّ أتعرّف بأم مايك.

قلت لها: أراهن أنه لم يشأ أن تزوريني. وعندما ترددَت استطردتُ أقول: لا حاجة بكِ إلى مصارحتي بذلك؛ فأنا أعرف ولدي جيداً، أو بوجه أصح أعرف ما يريد وما لا يريد.

قالت: هل تظنين... لعله يشعر بالخجل لأنكما فقيران ولأنني ثرية، ولكن أعتقد أن الأمر ليس كذلك أبداً فليس هذا من شيمه أبداً.

فقلت لها: لا حاجة بكِ إلى مثل هذا القول يا بنيتي؛ فأنا أعرف نقائص ولدي، وهذه ليست إحدى نقائصه. إنه لا يخجل مني ولكنه يخافني؛ فأنا أعرف الشيء الكثير عنه.

وبدا أن قولي هذا قد أطربها فردَّت: هذا هو الشعور الذي أتوقعه دائماً من الأمهات، إنهن يعرفن كل شيء عن أولادهن، وأظن أن الأبناء يشعرون بالضيق دائماً من ذلك.

قلتُ لأمي: كان يجب على إيللي أن تقول لي إنها ذهبت لزيارتك، ولا أدري لماذا أخفَت عني مثل هذا الأمر.

كنت غاضباً، بل شديد الغضب؛ فلم يخطر لي أبداً أن إيللي يمكن أن تحتفظ لنفسها بمثل هذا السر.

- كانت خائفة مما عملَته، ولكن... لا حاجة بها إلى أن تخاف منكَ يا ولدي!

- تعالي وشاهدي بيتنا.

لا أدري هل أعجبها المنزل أم لا؟ نظرَت إلى الغرف ورفعت حاجبيها ثم ذهبَت إلى الشرفة. كانت زوجتي وغريتا جالستين هناك، وكانتا قد عادتا لتوهما من الخارج. كانت غريتا ترتدي معطفاً من الصوف الأحمر على كتفيها، ونظرت أمي إليها متعجِّبة، ووقفَت لحظة تنظر إليها كما لو كانت قد تسمّرت في مكانها.

وهبّت إيللي واقفة وأسرعَت نحونا قائلة: يا إلهي! أهذه أنتِ يا سيدة روجرز؟ ثم استدارت لغريتا تقول: هذه أم مايك جاءت لزيارتنا ومشاهدة بيتنا، أليس هذا جميلاً منها؟ هذه صديقتي غريتا أندرسون.

ومدت يديها الاثنتين وأخذت يدَي أمي، ونظرت أمي إليها ثم رفعَت عينيها ونظرَت إلى غريتا قائلة (كما لو كانت تخاطب نفسها): أرى ذلك، أرى ذلك.

فسألَتها إيللي: ماذا ترين؟

ردّت أمي: طالما تساءلتُ كيف يكون بيتكما؟ نعم، إنه منزل جميل؛ أثاث ثمين ورياش فخمة ومقاعد وثيرة ولوحات رائعة.

- يجب أن تتناولي قدحاً من الشاي.

- ولكن يبدو لي أنكما فرغتما من تناول الشاي.

قالت: الشاي مشروب يمكن تناوله في كل حين. ثم نظرَت إلى غريتا قائلة: لن أدق الجرس، هلا ذهبتِ إلى المطبخ وأعددتِ لنا قدحاً من الشاي الطازج؟

فردّت غريتا: بكل سرور يا عزيزتي.

ومضت خارج الغرفة وهي تلقي بنظرة حادة من فوق كتفيها إلى أمي، نظرة مذعورة بعض الشيء! وقعدَت أمي في حين سألتها إيللي قائلة: أين حقائبك؟ أما أتيتِ لكي تبقى؟ أرجو ذاك.

- لا يا بنيتي، لن أبقى؛ سأعود بالقطار الذي ينطلق بعد نصف ساعة. لقد أردتُ رؤيتك فحسب. ثم استطردَت تقول مسرعة (وأظنها أرادت أن تتكلم قبل أن تعود غريتا): أرجو ألاّ تزعجي نفسك يا بنيتي؛ فلقد ذكرتُ له أنكِ أتيتِ لزيارتي.

ردَّت إيللي بحزم: أنا آسفة يا مايك لأنني لم أقل لكَ ذلك؛ فقد خطر لي أنه من الخير ألا أفعل.

وردّت أمي: إن زوجتك جاءت لزيارتي مدفوعة بإحساس يشرفّها؛ إنها فتاة طيبة يا مايك، وجميلة. ثم استطردَت تقول بصوت مسموع: أنا آسفة.

فسألَتها إيللي في شيء من الحيرة: آسفة؟ ولماذا؟!

- لما بدر مني. ثم أردفَت تقول في شيء من التوتر: حسناً،

لقد أصبتِ في قولك حين ذكرتِ إن الأمهات متشككات فيما يتعلق بأولادهن، ولكنني حين رأيتك عرفت أن مايك أحسنَ الاختيار وهو موفَّق.

فقلتُ: يا لها من وقاحة!

ولكنني نطقتُ بذلك وأنا ابتسم واستطردتُ: أنتِ تعرفين أنني أتمتع بذوق كبير يا أماه.

فقالت أمي: تقصد أن تقول إنك تتمتع بذوق للبذخ يكلِّف الكثير.

ونظرَت إلى الستائر الحريرية الموشَّاة فقالت إيللي وهي تبتسم: أنا أسوأ منه في هذه الناحية.

فردَّت أمي: بل يجب أن تشجعيه على الاقتصاد من وقت لآخر؛ فإن هذا خير له.

فاعترضتُ أقول: ولِمَ الاقتصاد؟ إن ميزة الزواج بامرأة ثرية هي أن الزوج يستطيع الإنفاق كما يشاء، أليس كذلك يا إيللي؟

ارتسمت أمارات السعادة على وجه إيللي، وأقبلت غريتا في هذه اللحظة ومعها إبريق الشاي. وتوتر الموقف بيننا بعض الشيء، وحاولت إيللي أن تقنع أمي بالبقاء ولكن محاولتها باءت بالفشل فلم يسعها إلا أن تسكت.

ورافقنا أمي (أنا وإيللي) حتى الطرقة الخارجية، وقالت أمي فجأة: ما الاسم الذي أطلقتماه على المنزل؟

ردَّت إيللي قائلة: أرض الغجر.

قالت أمي: نعم، إن هناك بعض الغجر في هذا المكان، أليس كذلك؟

فسألتُها: مَن قال لكِ ذلك؟

– شاهدتُ امرأة غجرية وأنا في طريقي إليكم، لقد رمتني بنظرة غريبة. هل تسببتما لها في ضرر ما؟

فردّت إيللي: أبداً، ولكنها تعتقد شيئاً من هذا القبيل؛ تعتقد أننا أقصيناها عن هذا المكان وأننا اغتصبناه منها.

قالت أمي: أظن أنها تنشد بعض المال.

فسألتها إيللي: أرى أنكِ لا تحبين الغجر.

– إنهم جماعة من الأشرار يبغضون العمل ويمدون أيديهم لما ليس ملكاً لهم.

– حسناً، لنطرحهم من أذهاننا.

وودعتنا أمي قائلة قبل أن تنصرف: مَن هذه الفتاة الشابة التي تقيم معكما؟

ذكرَت لها إيللي كيف تعيش غريتا معها منذ ثلاث أو أربع سنوات قبل زواجها، وكيف أنه لولا غريتا لكانت حياتها تعيسة، واستطردَت تقول: لقد بذلَت غريتا كل ما وسعها لمساعدتنا، إنها فتاة رائعة! ولا أستطيع... بل لا أرى كيف أتصرف بدونها.

- هل تقيم معكما أم أنها في زيارة لكما؟

قالت إيللي متحاشية الرد: حسناً، إنها تقيم معنا الآن لأن كاحلي أُصِيبَ بالتواء وكان لا بد من أحد لكي يعنى بي، ولكنني الآن على ما يرام.

- من الخير لعروسين جديدين أن يقيما وحدهما.

ووقفنا بجوار الباب نشاهد أمي تهبط التل، وقالت إيللي في تفكير: إنها تتمتع بشخصية قوية جداً.

كنتُ لا أزال غاضباً من إيللي، بل كنت شديد الغضب منها لأنها ذهبت لزيارة أمي بدون علمي، ولكنها حين استدارت ونظرت إليّ رافعة حاجبيها قليلاً وعلى شفتيها تلك الابتسامة الساذجة التي أعرفها ذهب غضبي على الفور وقلتُ: يا لكِ من فتاة مخادعة صغيرة! لماذا اهتممتِ بزيارة أمي كل هذا الاهتمام؟

- لم أهتم كما تقول، ولكنني رأيتُ أنه من الواجب والكياسة أن أفعل. أنت لم تحدثني كثيراً عنها، ولكنني أعرف أنها بذلَت الكثير من أجلك وحرمَت نفسها من كل شيء تقريباً لتنفق على تعليمك وتجعلك رجلاً، ولقد رأيتُ أنه من الخسة والتكبر ألاّ أذهب لأراها.

- ما كان في مقدور أحد أن يلومكِ لو أنكِ لم تذهبي لزيارتها، فاللوم كان سيقع عليّ أنا.

- نعم، لعلي أستطيع الآن فهم لماذا لم تشأ أن أذهب لزيارتها.

– هل تعتقدين أنني أعاني من نقطة نقص بخصوص أمي؟ هذا ليس صحيحاً يا إيللي، أؤكد لكِ أن هذا ليس بصحيح.

ردّت بتفكير: لا، أنا أعرف ذلك الآن وأعرف أنك لم تشأ أن ألتقي بها حتى لا تصدع رأسي فتحدثني عنك؛ لأنها من النوع الذي يحب لأبنائه الثبات والاستقرار.

– هذا صحيح؛ لأن شغلها الشاغل هو أنها تريد أن تراني أستقر وأن أجد عملاً.

– لا يمكن أن تحنق عليها لهذا السبب يا مايك؛ فهي لا تهدف إلا لمصلحتك، على أنني أرى أنك لم تُخلَق للعمل ولا للاستقرار وإنما خُلقتَ للتنقل بين مختلف بلدان العالم واستكشاف المناطق المجهولة.

– بل أريد البقاء هنا في هذا المنزل، معكِ.

– ربما لفترة ما، سينتهي بكَ الأمر إلى العودة هنا من حين لآخر، وكذلك أنا. أظن أننا سنعود إلى هذا المكان كل سنة؛ فسنكون في هذا المنزل أسعد منا في أي مكان آخر، ولكنكَ ستحب السفر والرحيل يا مايك، سيحلو لكَ أن ترى أشياء وأن تشتري أشياء، ربما تريد أن ترى أنماطاً للبساتين في إيطاليا واليابان وغيرها لكي تقيم مثلها في أراضينا.

– أنتِ تجعلين الحياة تبدو لي أكثر إثارة يا إيللي، ويؤسفني أنني غضبت.

- أنا لا أهتم بغضبك هذا لأنني لا أخافك. ثم استطردَت تقول: إن أمك لا تحب غريتا.

- إن أشخاصاً كثيرين لا يحبوها.

- بما فيهم أنت.

- افهميني يا إيللي، أنتِ تصرين على هذا القول مع أنه غير صحيح؛ لقد كنتُ أشعر بالخجل منها في بادئ الأمر ولكننا أصبحنا الآن متفاهمين. واستطردتُ أقول: أظنها تجعل الناس يتحفَّظون معها.

- إن السيد ليبنكوت لا يحبها هو الآخر، ويعتقد أنها تؤثر عليّ تأثيراً كبيراً.

- وهل هذا صحيح؟

- إنني لأعجب لماذا تسأل. نعم، أظن أنه صحيح، وهذا شأن طبيعي؛ فهي ذات شخصية مسيطرة، ولا بد من شخص أستطيع أن أثق به وأركن إليه، شخص يمكنه أن يكافح ويناضل من أجلي.

فقلتُ ضاحكاً: ويمكّنك -في نفس الوقت- من أن تفعلي ما تريدين.

* * *

عدنا إلى المنزل فلم نجد غريتا فيه، وقال الخادم إنها خرجَت تتمشى.

والآن وقد عرفَت أمي أنني تزوجتُ فقد أرسلتُ إليها شيكاً بمبلغ كبير كنت أشك في أنها ستقبله، وكما توقعتُ أعادت لي الشيك ممزقاً قطعتين، ومعه كلمة تقول: «لا أريد هذا المال يا مايك، أنت لن تتغير أبداً، أعرف ذلك الآن، وليساعدك الله».

قلتُ مخاطباً زوجتي: أرأيتِ أمي؟ لقد تزوجتُ فتاة ثرية وأعيش الآن بنقود زوجتي غير أنها لا تقرني على ذلك.

قالت: أما أنا فأحبك كما أنت. ثم غيَرت مجرى الحديث وذكرَت شيئاً أثار قلقي: ما رأيكَ في خادمنا الجديد؟

لم أكن قد فكرتُ بأمره فأجبتُ: إنه على ما يرام، لماذا؟

- خطر لي أنه ربما يكون من رجال الأمن.

- من رجال الأمن؟! ماذا تعنين؟

- أعني أنه مخبر سري. أعتقد أن العم أندرو دبّر أمره لكي يلحقه بخدمتنا.

- ولأي سبب؟

- لعله يخشى أن يختطفني أحد، لا تنسَ أنه كان هناك حرس خاص يقوم على حراستي في الولايات المتحدة.

ضرر آخر من أضرار المال لم أكن قد فكرتُ فيه! قلت: يا لها من فكرة مزعجة!

- لا أدري، إنه إجراء تعودتُ عليه على كل حال. ولا أرى فيمَ يهمك هذا، فلن يلاحظ أحد ذاك حقاً.

- وهل زوجَته ضالعة في هذا الأمر أيضاً؟

- أظن ذلك، على الرغم من أنها طاهية بارعة، وأظن أن العم أندرو (أو لعله ستانفورد لويد) هو الذي أغرى خادمنا السابق بمغادرتنا ثم ألحق هذين الخادمين بدلهما، فمن السهل عليه أن يفعل ذلك.

قلتُ غيرَ مصدِّق: من غير أن يطلعك على ذلك؟

- لا يفكر أحد منهما في إطلاعي على شيء خشية أن أعترض. واستطردَت تقول: ومَن يدري؟ ربما أكون مخطئة؛ فأنا أشعر دائماً بأن هناك هذا النوع من الناس حولي.

قلتُ بدهشة: يا لكِ من فتاة ثرية مسكينة!

فلم تُبدِ إيللي أي اهتمام وردّت: أظن أن هذا أصدق وصف لي.

- إنني أكتشف كل يوم أموراً غريبة تتعلق بكِ.

* * *

الفصل السادس عشر

النوم أمره غريب غامض؛ فقد أويتُ إلى فراشي في تلك الليلة وذهني مشغول بالغجر والأعداء الخفيين والمخبر السري الذي يعيش في بيتي واحتمال اختطاف إيللي، ومئات من الأشياء الأخرى، ولم ألبث أن غلبني النعاس وشدني إلى مملكته حيث لا أدري.

وحين صحوتُ كنتُ قد تخلصتُ من متاعبي ومخاوفي وألفيتُ نفسي في حالة من الانفعال الشديد بحيث ظل اليوم السابع عشر من سبتمبر محفوراً في ذهني، وقلتُ أحدِّث نفسي في اقتناع: يوم رائع! سيكون اليوم رائعاً من غير شك.

وكنتُ قد دبرتُ أمري بحيث ألتقي بالميجور فيليبوت في صالة مزادات تقع على بعد خمسة عشر ميلاً، وكانت هناك أشياء كثيرة معروضة للبيع؛ فقد لاحظتُ في الكتالوج شيئاً أو شيئين قررتُ الحصول عليهما. وكان فيليبوت على دراية كبيرة بكل ما يتعلق بالمفروشات والفضيات وما أشبه، ولم يكن ذلك لأنه كان خبيراً أو فناناً (فقد كان رجلاً رياضياً)، لكنه كان على

علم بكل شيء، وكان كل فرد من أفراد أسرته على غراره في ذلك.

تفحصتُ الكتالوج أثناء طعام الإفطار، وكانت إيللي قد هبطَت وهي ترتدي ثياب الركوب. كانت تمتطي جوادها كل يوم تقريباً، أحياناً بمفردها وأحياناً مع كلوديا، كانت لا تتناول غير فنجان من القهوة وكوب من عصير البرتقال كل يوم، أما أنا فقد كان طعامي في ذلك الصباح مكوَّناً من السجق، وكانت أكلة طيبة لذيذة. وسألتُ غريتا قائلاً: ماذا ستفعلين اليوم يا غريتا؟

فردّت غريتا إنها ستلتقي بكلوديا هارد كاسل في محطة ماركيت شارويل وستذهب معها إلى لندن لمشاهدة التخفيضات الخاصة بالمفروشات.

ونظرتُ إلى إيللي قائلاً: حسناً، إذا كانت غريتا ذاهبة إلى لندن اليوم فلماذا لا تأخذين السيارة وتأتين لملاقاتنا في مطعم جورج بيارتنجتون؟ إن الطعام هناك شهي ولذيذ كما يقول الميجور فيليبوت. ما رأيكِ في أن نلتقي في الساعة الواحدة؟ إنه على مسافة نحو ثلاثة أميال بعد ماركيت شارويل.

ردت إيللي: حسناً، سآتي.

وعاونتُها على ركوب جوادها فأخذَت طريقها بين الأشجار، وتركتُ لها السيارة الصغيرة ليتيسر لها الوقوف بها في أي موقف وأخذتُ العربة الكبيرة الكريزلر وانطلقتُ بها إلى بارتنجتون مانور حيث بلغتها قبل بدء المزار.

كان فيليبوت هناك، ورأيتُ أنه حجز لي مكاناً بجواره وقال: في هذا المزاد أشياء جميلة جداً. لوحة أو لوحتان جميلتان: واحدة من رسم رومني والأخرى من رسم رينولدز، فهل تهمك إحداهما؟

هززتُ رأسي نفياً؛ فقد كنتُ لا أهتم في ذلك الحين إلا بالفنانين المعاصرين. واستطرد فيليبوت يقول: لقد قدِم بعض التجار وهناك اثنان من لندن، هل ترى هذا الرجل النحيف؟ إنه كريستنجتون، التاجر المشهور. ألم تأتِ زوجتك معك؟

- لا؛ إنها لا تحب حضور المزادات كثيراً، ومهما يكن من أمر فلم أشأ أن تصحبني إلى هذا المزاد بالذات.

- لماذا؟

- لأنني أنوي أن أقدم لها مفاجأة، هل شاهدت رقم ٤٢؟

ألقى فيليبوت نظرة على الكتالوج ثم أدار بصره في الغرفة وقال: نعم، هذا المكتب الصغير المصنوع من الخشب المضغوط؟ إنه مكتب جميل، بل إنه من أجمل المكاتب التي رأيتها حتى اليوم. لقد شاهدتُ مكاتب كثيرة، ولكنني لم أرَ مثيلاً له أبداً، إنه تحفة نادرة! بل أظن أنه لا نظير له.

كان المكتب المذكور دقيق الصنع محفوراً عليه رسم لقصر وندسور، وعلى جانبيه باقات من الزهور والنباتات الجميلة. قال فيليبوت: إنه تحفة حقاً، ولكنني لم أكن أظنك تهتم بمثله.

قاطعته قائلاً: أنا لا أريده لنفسي، ولكن إيللي شغوفة بهذا النوع وعيد ميلادها في الأسبوع القادم، لذا أنوي تقديمه هدية لها، وأتمنى أن يكون مفاجأة؛ ولهذا السبب لم أشأ أن تعرف أنني مهتم بمزاد اليوم. ولكني أعرف أن هذا المكتب سيروق لها جداً وأنه سيكون مفاجأة سارة.

جلسنا وبدأ المزاد، وارتفعَت قيمة المكتب المذكور؛ فقد تكالب عليه التجار وزادوا عليه بشكل عجيب فاشتدت المنافسة بينهم، واشتريت مقعداً منقوشاً بدا لي أنه سيكون في مكانه الحق في بهو البيت كما اشتريتُ بعض الستائر الكبيرة المطرّزة، وكانت كلها في حالة جيدة.

قال فيليبوت وهو ينهض واقفاً حين فرغ المُزايد من بيع الصباح: يبدو أنك استمتعت جيداً، هل ستحضر بيع بعد الظهر؟

هززت رأسي وقلت: لا؛ فلم يعد هناك ما يثير اهتمامي، فقط بعض المفروشات الخاصة بغرف النوم وبعض السجاجيد وما أشبه.

- نعم، لا أظن أن هذا يثير اهتمامك حقاً. ونظر إلى ساعته واستطرد يقول: من الأفضل أن تنصرف. هل سنلتقي بإيللي في مطعم جورج؟

- نعم، ستكون بانتظارنا.

- و... والآنسة أندرسون؟

- لقد ذهبَت غريتا إلى لندن لمشاهدة التخفيضات الخاصة بالمفروشات مع الآنسة هارد كاسل على ما أعتقد.

- نعم؛ فقد ذكرَت كلوديا شيئاً كذلك أمس. إن أثمان المفروشات ارتفعت بطريقة خيالية في أيامنا هذه!

مضينا إلى مطعم جورج ورأينا حشداً من السيارات يقف أمامه، كان بعضها ملكاً -بلا ريب- لبعض الذين حضروا المزاد، ولكنني لم أرَ بينها سيارة إيللي. دخَلنا وأدرتُ البصر حولي ولكنني لم ألبث أن رأيتُ أنها لم تأت بعد، وكانت الساعة قد بلغت الواحدة ولم تتجاوزها بعد فبدأنا نأكل، وجيء بالحلوى أخيراً فقلت فجأة: أخشى أن تكون إيللي قد نسيَت كل شيء.

- لعل من الأوفق أن تتصل بها بالهاتف.

مضيتُ إلى الهاتف واتصلت بالمنزل. ردّت عليّ السيدة كارسون الطاهية تقول: أهذا أنت يا سيد روجرز؟ إن السيدة روجرز لم تعد بعد!

- ماذا تعنين بأنها لم تعد بعد؟! لم تعد من أين؟

- لم تعد من نزهتها الصباحية.

- ولكنها خرجَت بعد تناول الإفطار ولا يمكن أن تبقى طوال النهار!

- إنها لم تذكر لي شيئاً قبل أن تخرج وكنت أتوقع أن تعود.

- لماذا لم تتصلي بي وتخبريني بذلك؟

- حسناً، لم أعرف كيف أتصرف؛ فلم أعرف أين كنتَ.

ذكرتُ لها أنني في مطعم جورج ببارتنجتون وأعطيتها رقم الهاتف، وأعلمتُها أنه يجب عليها أن تتصل بي بمجرد أن تصلها أنباء عنها، ثم عدتُ إلى فيليبوت فرأى من ملامحي أن هناك شيئاً فقلتُ: لم تعد زوجتي إلى المنزل. لقد خرجَت تتنزه بجوادها هذا الصباح (وهي تخرج عادة كل صباح تقريباً) ولكنها لا تبقى بالخارج أكثر من نصف ساعة أو ساعة.

قال في رقة: لا تقلق قبل أن يكون هناك داع؛ لعل جوادها كبا وأصيب بالعرج فاضطرت للعودة سيراً على قدميها، فهي تعلم أنه ليس في هذه الناحية أحد كي تبعث به إلى المنزل.

- لو أنها رأت أن تغير خططها فتذهب لزيارة أحد ما لأخطرتني هاتفياً هنا أو تركَت لنا رسالة.

- حسناً، لا داعي للقلق. أظن أن من الأفضل أن نمضي الآن لنرى ما حدث.

وفيما كنا نمضي إلى موقف السيارات، انطلقَت سيارة يستقلها الرجل الذي رأيته في قاعة الطعام، وفجأة عرفتُه! إنه ستانفورد لويد أو لعله كان رجلاً يشبهه! وتساءلتُ: ماذا تراه يفعل هنا؟ هل يمكن أن يكون قد أقبل لزيارتنا؟ إذا كان الأمر كذلك فمن الغريب ألا يخطرنا بذلك.

كانت تجلس في السيارة معه امرأة بدت أشبه بكالوديا هارد كاسل، ولكنني كنت أعلم أن هذه الأخيرة في لندن مع غريتا لشراء بعض المفروشات. إن كل هذا يزيد من حيرتي!

وفي الطريق نظر فيليبوت مرة أو مرتين، وتقابلَت عيناي بعينيه في المرة الأخيرة فقال بمرارة: حسناً، اطرح كل هذه الأفكار من رأسك، ربما وقعَت والتوى كاحلها أو ربما شيء من هذا القبيل قد وقع لها. وأردف يقول: إنها فارسة ممتازة، لقد رأيتُها ولا أظن أن حادثاً يمكن أن يكون قد وقع لها.

- إن الحوادث يمكن أن تقع في أي حين.

انطلقنا مسرعين وبلغنا الطريق المؤدي للسهل خلف المنزل. كنا نردد البصر حولنا مستطلعين نتوقف من حين لآخر للسؤال، وتوقفنا برجل كان يقتطع الحطب وحصلنا منه على أول الأنباء؛ فقد قال: رأيتُ جواداً لا يركبه أحد ربما منذ ساعتين أو أكثر، فأردتُ أن أمسكه ولكنه أسرع بالانطلاق حين دنوتُ منه، ولم أرَ أحداً غيره.

قال فيليبوت: من الأفضل أن نذهب إلى المنزل؛ فقد تكون هناك أنباء.

وذهبنا إلى المنزل فلم نجد هناك أية أنباء. واستدعيتُ الخادم وأرسلتُه إلى الأرض البور لكي يبحث عن زوجتي، واتصل فيليبوت ببيته هاتفياً وأرسل رجلاً من هناك ليبحث عنها هو الآخر، ثم أخذتُ أنا وهو طريقنا معاً عبر الغابة (وهو الطريق الذي طالما سلكَته إيللي) وبلغنا الأرض البور.

لم أرَ شيئاً في البداية، فتقدمنا بمحاذاة حافة الغابة حيث تتجمع بعض الطرق، وهناك رأيناها! رأينا كومة من الثياب يتلاعب بها الهواء، وكان الجواد قد عاد ووقف يضرب بحوافره بجوارها.

أخذتُ أجري وتبعني فيليبوت بأسرع مما كنتُ أتوقع من رجل في مثل سنه. كانت ممددةً هناك وثيابها تتطاير من حولها ووجهها الأبيض ينظر إلى السماء فقلت: لا أستطيع، لا أستطيع... ثم أدرتُ وجهي.

أسرع فيليبوت وانحنى بجوارها، ولكنه ما لبث أن نهض على الفور وقال: يجب أن نبحث عن طبيب... الطبيب شو؛ إنه أقرب طبيب، وإن كنتُ أظن أننا لن نكون بحاجة إليه.

- هل تعني... هل تعني أنها ماتت؟

- نعم، لا خير في الادّعاء بأي شيء آخر.

هتفتُ: يا إلهي! ونظرتُ بعيداً واستطردتُ: لا أستطيع أن أصدق هذا. إيللي ماتت!

وأقبل الخادم عندئذ فأرسله فيليبوت ليحضر الطبيب شو.

* * *

الفصل السابع عشر

لم أكن أدري شيئاً عمّا يدور في الجلسات التمهيدية للتحقيق؛ فلم يسبق لي أن حضرتُ مثل هذه الجلسات، وبدا لي الأمر غريباً بعيداً عن الواقع. كان المحقق رجلاً قصير القامة ثرثاراً يضع نظارات فوق عينيه، وكان لا بد لي من إثبات شخصية إيللي والإدلاء بأقوالي؛ فذكرتُ له كيف كانت إيللي حين رأيتها آخر مرة على مائدة الإفطار وكذلك عند انصرافها بعد فراغها منه لكي تقوم بجولتها الصباحية على ظهر جوادها، وأخبرته بالموعد الذي حدّدناه لنلتقي فيما بعد لتناول الغداء، وذكرتُ له أنها بدت كعادتها تماماً وفي أتم صحة.

كانت شهادة الطبيب شو هادئة غير قاطعة أو حاسمة، فقال إنه لم يجد أية جراح خطيرة ولم يلاحظ أي شيء مما يحدث عادة في مثل هذه الظروف نتيجة لوقوعها من فوق الجواد؛ فهي لم تُصَب بأي كسر يمكن أن يُستدَلّ منه على أنه تسبب في موتها، وكذلك لم يكن هناك ما يدل على أنها تحركت بعد وقوعها. قال إن الموت كان سريعاً، وبالتالي فلم يكن من الممكن أن يُقدَّم تفسيراً لموتها فيما عدا أن قلبها ربما توقّف عن الخفقان على إثر الصدمة التي أحدثتها السقطة.

وبقدر ما أستطيع أن أفهم من المصطلحات الطبية التي سمعتها في ذلك اليوم فقد ماتت إيللي لأنها لم تستطع أن تتنفس، أو بمعنى أصح ماتت نتيجة اختناق؛ فقد كان جسدها سليماً ومحتويات بطنها عادية.

وأدلَت غريتا بشهادتها هي الأخرى فشدّدت الضغط عندئذ أكثر مما فعلت مع الطبيب شو فقالت: لقد كانت إيللي تشكو من مرض القلب منذ ثلاث أو أربع سنوات، أنا لم أسمع شيئاً محدداً، ولكن أقارب إيللي قالوا في تلك المناسبة إن قلبها ضعيف ويجب أن تعنى بنفسها وألا تبذل أي مجهود، فلم أسمع منهم شيئاً محدداً بالذات.

ثم تقدّم الشهود الذين كانوا في مسرح الحادث في ذلك اليوم، وكان الرجل العجوز الذي كان يقتطع الحطب أول من تقدم منهم فقال: لقد رأيتُ السيدة تمر بالجواد على مسافة نحو خمسين متراً. كنتُ أعرف مَن هي على الرغم من أنني لم أتبادل معها أي حديث، وكنتُ أعرف عنها أنها السيدة المقيمة بالمنزل الجديد.

- هل كنتَ تعرفها بالنظر؟

- لا، لم أعرفها جيداً ولكنني كنت أعرف الجواد يا سيدي؛ فإحدى قوائمه بيضاء. كنت أعرفه منذ كان ملكاً للسيد كاري المقيم بشتلجروم، ولم أسمع عنه أبداً أنه هاج مرة أو جمح؛ فهو جواد هادئ ويمكن أن تركبه كل سيدة بدون أي خوف.

- هل كان هائجاً حين رأيته؟ هل كان جامحاً؟

- لا، كان هادئاً جداً، ثم إن الطقس كان جميلاً.

وقال إنه لم يكن هناك أناس كثيرون في ذلك اليوم وإنه لم يلاحظ أحداً لأن الطريق الذي يؤدي إلى الأرض البور غير مطروق إلا حين يخطر للبعض اختصار الطريق إلى المزارع المجاورة، فهناك طريق آخر على بعد نحو ميل يسلكه الجميع عادة. وقد رأى في ذلك الصباح شخصاً أو شخصين؛ رجلاً يركب دراجة وآخر يمشي على قدميه، وكانا بعيدين عنه بما فيه الكفاية بحيث لم يميز ملامحهما، فلم يكن هناك ما يحمله على الاهتمام بأمرهما على كل حال. وكان قد رأى قبل ذلك بكثير (أي قبل أن يرى السيدة وهي راكبة جوادها بمدة) الغجرية العجوز السيدة لي، أو هكذا خُيِّل إليه؛ فقد كانت آتية نحوه، ولكنها لم تلبث أن تحولت ومضت إلى الغابة لأنها غالباً ما تستخدم الأرض البور في روحاتها وغدواتها عبر الغابة.

وهنا سأل المحقق: لماذا لم تأتِ السيدة لي؟

فقيل له إنهم أرسلوا لاستدعائها للإدلاء بشهادتها ولكن اتضح لهم أنها قد غادرت القرية منذ أيام ولا يعرف أحد أين ذهبت على وجه الدقة، كما أنها لم تترك عنوانها وليس من عادتها أن تفعل، إضافة إلى أنها غالباً ما تغادر بيتها إلى مكان آخر وتبقى غائبة مدة ثم تعود فجأة من غير إخطار، فليس في غيابها أي شيء غير عادي. وأكّد شخصٌ أو شخصان أنها غادرت القرية في اليوم السابق لليوم الذي وقع فيه الحادث.

وقال المحقق يسأل الحطّاب العجوز ثانية: ومع ذلك فأنت تظن أن المرأة التي رأيتها هي السيدة لي؟

- لا أستطيع أن أجزم بذلك يا سيدي، لستُ واثقاً؛ فقد كانت امرأة طويلة القامة تسير وحدها وترتدي معطفاً قرمزي اللون كالمعطف الذي ترتديه السيدة لي أحياناً، ولكني لم أنظر إليها بصفة خاصة فقد كنتُ منهمكاً في عملي. قد تكون هي وقد تكون امرأة غيرها، لا أستطيع أن أجزم.

وعاد فكرّر ما ذكره لنا في ذلك اليوم فقال: لقد رأيتُ السيدة راكبة جوادها، وكنتُ كثيراً ما أراها قبل ذلك فلم أعرها أي اهتمام خاص في ذلك اليوم، ولكنني رأيتُ الجواد -بعد ذلك- يعود وحده، كان يبدو كما لو أن شيئاً قد أفزعه.

ثم استطرد قائلاً: لا ريب أن الأمر كذلك على الأقل، فلن أستطيع تحديد الوقت بالضبط، لعل الساعة كانت الحادية عشرة إذ ذاك أو لعلها كانت قبل ذلك؛ فلقد رأيتُ الجواد -بعد ذلك بمدة كبيرة- وهو يعود إلى الأرض البور.

واستدعاني المحقق بعد ذلك وسألني بضعة أسئلة أخرى عن السيدة لي (السيدة إستر لي المقيمة بفاين كوتيدج): هل تعرف أنت وزوجتك السيدة لي؟

أجبته: نعم، معرفة جيدة.

- هل تحدثتَ إليها؟

- نعم، مرات كثيرة. أو على وجه الدقة: هي التي تحدثَت إلينا.

- هل حدث أن هددَتك في أي حين أو هددَت زوجتك؟

ترددتُ لحظة أو لحظتين ثم أجبتُ في بطء: نوعاً ما، لكن... لم يخطر لي أبداً.

- ماذا؟

- لم يخطر لي أنها تعني ما كانت تقول حقاً.

- هل كان يبدو عليها أنها تحقد على زوجتك؟

- قالت لي زوجتي ذات مرة إنها تظن أن السيدة لي تحقد عليها ولا تعرف لماذا.

- هل حدث أن طردتَها أنت أو زوجتك من أراضيكما في أي مرة؟ أو هل هددتها وأغلظتَ في معاملتها بأي حال من الأحوال؟

- لقد أتى كل عدوان منها هي.

- هل خامركَ شعور بأنها مخبولة؟

فكرت برهة ثم أجبتُ: نعم، خامرني إحساس بذلك، وأظن أنها كانت تعتقد أن الأرض التي بنينا عليها بيتنا كانت ملكاً لها أو لعشيرتها،كانت لديها فكرة مسيطرة بخصوص ذلك. واستطردتُ أقول في بطء: وكانت هذه الفكرة تزداد رسوخاً من حين لآخر حتى أصبحت تلازمها.

- ألم تحاول أن تعتدي على زوجتك اعتداء فعلياً في أي وقت من الأوقات؟

أجبتُ ببطء: لا، لا أظن أن من الكياسة قول ذلك. حسناً، لم يزد الأمر على إنذار شفوي بحت، قالت: «سيلازمكما النحس إن بقيتما هنا. ستحل عليكما اللعنة إن لم تغادرا المكان».

- هل ذكرَت كلمة الموت؟

- نعم، أظن ذلك، لكننا لم نأخذها مأخذ الجد. واستدركتُ أقول: لم آخذها أنا مأخذ الجد على الأقل.

- وزوجتك؟ هل أخذتها مأخذ الجد؟

- أخشى أنها قد فعلَت ذلك؛ فالمرأة العجوز كانت تثير الخوف والفزع حقاً، ولا أعتقد أنها مسؤولة شخصياً عما كانت تنطق به أو تفعل.

وانتهت الإجراءات بأن أجّل المحقق التحقيق أسبوعين. كانت كل الدلائل تشير إلى أن الموت كان نتيجة حادث، ولكن لم يكن هناك أي دليل عمّن تسبب في وقوع هذا الحادث، وأُجِّل التحقيق للاستماع إلى شهادة السيدة إستر لي.

* * *

الفصل الثامن عشر

في اليوم التالي للتحقيق ذهبتُ لمقابلة الميجور فيليبوت وسألته رأيه بصراحة، لأن الحطّاب العجوز قال إنه رأى امرأة خُيِّل له أنها السيدة لي وإنها كانت ذاهبة إلى الغابة في ذلك الصباح، وقلت له: أنت تعرف هذه المرأة العجوز، فهل تعتقد أنها جديرة بأن تتسبب في وقوع حادث عامدة؟

- لا أستطيع أن أعتقد هذا حقاً يا مايك؛ لأنك لكي تقدِم على مثل هذا العمل فلا بد لكَ من سبب قوي كالانتقام من ضرر خاص لحق بك أو شيء من هذا القبيل، في حين أن إيللي لم تفعل لها شيئاً.

- أعرف أن هذا عجيب. لماذا كانت تظهر بهذه الطريقة الغريبة باستمرار وتهدد إيللي وتطالبها بمغادرة البلد؟ كان يبدو كما لو كانت تحقد عليها، ولكن كيف يمكنها أن تحقد على إيللي وهي لم تكن بالنسبة لها أكثر من أمريكية غريبة عنها تماماً؟ لم يكن بينهما شيء في الماضي ولم تكن بينهما أية صلة.

قال فيليبوت: أعلم ذلك. ولا أستطيع إلا أن أشعر بأن هناك شيئاً لا نفهمه يا مايك، منذ متى كانت زوجتك تعيش في

إنجلترا قبل زواجها؟ هل أقامت في هذه الناحية فترة ما؟

- لا، أنا واثق من هذا. إن الأمر عسير جداً؛ فأنا لا أعرف أي شيء عن إيللي، أعني لا أعرف شيئاً عن معارفها وأصدقائها ولا أعرف أين كانت تذهب. لقد التقينا...

وهززتُ رأسي ونظرتُ إليه قائلاً: أنت لا تدري كيف التقينا؟ نعم، لا يمكن أن تستنتج ذلك أبداً.

وفجأة -وعلى الرغم مني- بدأتُ أضحك، ورحتُ أضحك بدون توقف وفي شيء من الهستريا، واستطعتُ أن أرى وجهه وهو ينظر إليّ في صبر وأناة حتى استعدتُ أنفاسي وملكتُ زمامي. كان رجلاً يعرف كيف يواجه كل شيء وكيف يوحي بالثقة، وقلتُ: لقد التقينا هنا... هنا في أراضي الغجر؛ شاهدتُ اللافتة الخاصة ببيع المكان وصعدتُ الطريق إلى التل لكي أرى الأراضي كلها، وهكذا رأيتها لأول مرة. كانت تقف في ظل إحدى الأشجار، وقد أفزعتها أو لعلها هي التي أفزعتني، مهما يكن من أمر فهكذا بدأ الأمر معنا وانتهى بنا إلى الإقامة هنا، في هذه الأرض الملعونة المشؤومة.

- وهل أحسستَ طول هذا الوقت بأنها مشؤومة؟

- لا، نعم، لا... في الواقع لا أدري! لم أشأ أن أسلِّم بهذا الأمر أبداً، ولكنني أظن أنها كانت تعلم، أظنها كانت خائفة طول الوقت. ثم قلتُ في بطء: وأظن أن شخصاً ما قصد أن يخيفها عمداً.

فقال بشيء من الحيرة: ماذا تعني بهذا القول؟ مَن الذي قصد إخافتها؟

- يُحتَمل أن يكون الشخص الذي أعنيه هو الغجرية العجوز، ولكنني لست واثقاً من ذلك؛ فقد اعتادت أن تنتظر إيللي وتقول لها إن هذا المكان سيكون نحساً عليها ولا بد لها من مغادرته.

قال بغضب: هكذا، ليتني علمتُ بهذا الأمر! لو أنني علمتُ به لذهبتُ إلى إستر العجوز ولقلتُ لها إنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً كهذا.

- لكن... لماذا أقدمَت على ما فعلت؟ ما الذي دفعها إلى هذا؟

قال فيليبوت: مثلها في ذلك مثل جميع الناس؛ فقد أرادت أن تضفي على نفسها أهمية، وهي مولعة إما بإنذار الناس وإما بقراءة طوالعهم والتنبؤ بالطوالع السعيدة؛ إنها تحب الادعاء بأنها تعرف المستقبل.

قلتُ ببطء: لنفرض أن بعضهم عرض عليها مالاً؛ فقد قيل لي إنها تحب المال.

- نعم، إنها تحبه كثيراً، ولو أن أحداً عرض عليها كما تقول... ولكن مَن الذي أوعز إليك بهذه الفكرة؟

- الضابط كين، والحق أنها ما كانت تخطر لي أبداً.

فقال وهو يهز رأسه ببطء: هكذا... ثم استطرد: أنا لا أعتقد

ذلك، لا أعتقد أنها تعمّدَت إخافة زوجتك إلى حد تسببها في وقوع حادث لها.

- لم يكن في حسبانها وقوع هذا الحادث القاتل، ولا ريب أنها أقدمَت على شيء أخاف الجواد كأن تطلق قذيفة مفرقعة أو تهزّ ورقة كبيرة بيضاء أمامه أو أي شيء من هذا القبيل. طالما أحسستُ بأنها تحقد على إيللي من غير سبب.

- يبدو لي هذا بعيد الاحتمال.

فكرتُ لحظة أو لحظتين ثم قلتُ: سيبدو كل ما سأقوله غريباً، لنقل -كما قال كين- إن شخصاً دفع مبلغاً من المال لكي تفعل ما فعلَت، فماذا كان يريد ذلك الشخص؟ لنقل إنه كان يريد إبعادنا من هنا وإنه ركز على إيللي وليس عليّ أنا لأنني لا أخاف كما تخاف هي، وإنه عمل على إخافتها كي أخاف عن طريقها لنغادر المكان. إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن هناك سبباً دفعه إلى ذلك، كرغبة -مثلاً- في أن تُطرَح الأرض للبيع ثانية، شخص أعتقد أنه يريد أرضنا لسبب ما.

قال فيليبوت: هذا ظن معقول، ولكنني لا أرى أي سبب يدفع أي أحد على أن يفعل ذلك.

- لعل في الأرض منجماً لا يعرف أحدٌ عنه شيئاً.

- أشك في ذلك.

- أو كنزاً مدفوناً مثلاً... أعرف أن قولي هذا يبدو سخيفاً، ولكن ربما دُفِنَت فيها غنيمة سرقة كبيرة من أحد البنوك.

هز فيليبوت رأسه بشيء من الحيرة فقلتُ: إن الاقتراح الوحيد هو أن نعود خطوة إلى الوراء، فلا ريب أن هناك شخصاً خلف السيدة لي وأن هذا الشخص نقدَها مبلغاً من المال. ربما يكون عدواً لدوداً لإيلي.

- ولكن ألا تشك بأحد بالذات؟

- لا؛ فهي لم تكن تعرف أحداً هنا وأنا واثق من ذلك، فلم تكن لها أية صلة بهذا المكان. ونهضتُ قائلاً: أشكرك لاستماعك إليّ.

- وددتُ لو أني كنتُ أكثر عوناً لك.

وخرجتُ من الباب وأنا أتحسس بأصابعي الشيء الذي كنت أضعه في جيبي، ثم عقدتُ العزم فجأة فاستدرتُ على عقبي وعدتُ إلى الغرفة قائلاً: هناك شيء أريد أن أريه لك، فقد كنتُ ذاهباً كي أريه للضابط كين ليرى ماذا يستطيع أن يفعل.

ودسستُ يدي في جيبي وأخرجتُ منه حجراً صغيراً مستديراً ملفوفاً في قصاصة من الورق عليها كلمات مكتوبة بحروف مطبعية وقلتُ: أُلقِي هذا الحجر من خلال نافذة غرفة الطعام صباح اليوم، وسمعتُ الزجاج يتحطم وأنا أهبط الدرج، ولقد سبق أن أُلقِي حجر من خلال النافذة قبل ذلك حين قدمنا لأول مرة، ولا أدري إن كان الذي ألقاه هو نفس الشخص أم لا؟

وأخذتُ الورقة الملفوفة وناولتُه إياها. كانت قصاصة قذرة

خشنة المظهر عليها كتابة بالحبر الباهت، ووضع فيليبوت نظارته وانحنى فوقها. كانت رسالة قصيرة هذا نصها: «زوجتك قتلَتها امرأة».

فرفع فيليبوت عينيه وقال: هذا عجيب! هل كانت الرسالة الأولى مكتوبة بحروف المطبعة هي الأخرى؟

- لا أستطيع أن أتذكر الآن، كانت مجرد إنذار حتى نغادر المكان ولا أستطيع أن أذكر نصها بدقة، ومهما يكن فقد بدا لنا الأمر كما لو كان لهو أطفال، ولكنه الآن مختلف.

- هل تظن أن الذي ألقاها يعرف شيئاً ما؟

- إنه مجرد اتهام خبيث من مجهول، وهذا أمر شائع الحدوث.

أعاد الورقة إليّ وقال: أظن أنك على حق في أن تذهب بها إلى الضابط كين؛ فهو يعرف عن هذه الرسائل المجهولة أكثر مما أستطيع أن أعرف.

* * *

وجدتُ الضابط كين في قسم الشرطة، وارتسمت على ملامحه ابتسامة على الفور وقال: إن هناك أموراً غريبة تدور هنا.

- هل تظن أن الرسالة تعني شيئاً؟

– من العسير الجزم بذلك؛ لعل شخصاً خبيثاً يحاول اتهام امرأة لغرض في نفسه.

– ربما يشير إلى اتهام السيدة لي.

– لا، لا أعتقد هذا، من المحتمل... أقول إن من المحتمل أن شخصاً رأى أو سمع شيئاً، سمع حركة أو صرخة ثم رأى الجواد يعدو بعد أن مرت به امرأة، أو لعله رأى أو التقى بامرأة بعدها على الفور يظن أنها غير الغجرية؛ لأن الجميع يعلم أن هذه الأخيرة ضالعة بهذا العمل، ولذا يبدو أنه يشير إلى واحدة غيرها.

– وماذا عن الغجرية؟ هل جاءتك أخبار عنها؟ أو... هل عثرتم عليها؟

هز رأسه ببطء وقال: نحن نعرف أنها تختلف إلى أماكن معينة حين تغادر القرية، ولا أظن أنها ذهبَت لأبعد من شرق إنجليا.

لمستُ في قوله هذا شيئاً غريباً فقلتُ: أنا لا أفهم تماماً.

– لنواجه الأمر بهذه الطريقة: إنها خائفة، ولديها من الأسباب ما يحدوها لذلك؛ فلقد هددَت زوجتك وأخافتها وتسبّبت الآن في وقوع حادث ماتت زوجتك على أثره، سيطاردها رجال الشرطة وهي تعلم ذلك؛ ولذا فستحاول الذهاب بعيداً إلى أبعد ما يمكن.

– ولكنك ستجدها؛ فهي معروفة.

- نعم، سنجدها حتماً، ولكن مثل هذه الأشياء تقتضي وقتاً ما. هذا إذا كان الأمر قد حدث هكذا حقاً!

- ولكنكَ تظن أن الأمر لم يحدث هكذا؟

- حسناً، إنني أتساءل: هل دفع لها أحدٌ مبلغاً من المال حتى تفعل ما فعلَت؟

- إذا كان الأمر كذلك فستبادر بمغادرة القرية.

- ولكن شخصاً آخر سيفعل ذلك أيضاً، يجب أن نفكر في هذا يا سيد روجرز.

قلتُ ببطء: هل تعني... هل تعني الشخص الذي دفع لها؟

- نعم.

- لنفرض أن هذا الشخص امرأة.

- ولنفرض أن شخصاً آخر خطرَت له نفس الفكرة فبدأ بأن بعث إليكَ هذه الرسالة. فلو أن الأمر يتعلق بامرأة حقاً فسيتملكها الخوف، فلعلها لم تكن تقصد أن يقع ما وقع، وستقول إنها لم تكن تريد ذلك، وبالتالي فقد حرصَت الغجرية العجوز على إفزاع زوجتك والعمل على إبعادها عن هذا المكان، ولكنها لم تكن تهدف إلى التسبب في موت السيدة روجرز.

- نعم، لم تقصد موتها بل قصدَت إفزاعنا أنا وزوجتي لنغادر المكان.

- إن شخصاً ما قد حرّض السيدة لي، وهذا الشخص (سواء كان رجلاً أو امرأة) سيعمل على إسكاتها بأسرع ما يمكن، ألا ترى ذلك؟

- هل تظن أنها ماتت؟

قال كين: هذا محتمَل طبعاً. ثم غيّر مجرى الحديث فجأة فقال: أظنك تعرف تلك الخلوة المقامة وسط الغابة في أراضيك يا سيد روجرز؟

- نعم، ما شأنها؟ لقد أدخلنا عليها بعض الترميمات والإصلاحات أنا وزوجتي، وكنا نختلف إليها من وقت لآخر ولكن ليس بصفة مستمرة، ولم نذهب إليها منذ مدة طويلة. ما شأنها؟

- حسناً، كنا نقوم بتحرياتنا -كما تعلم- فوقعنا عليها، ولم يكن الباب موصداً.

- هذا صحيح؛ فنحن لا نوصده أبداً، فكل ما به لا قيمة له تُذكَر، بعض قطع الأثاث القديم لا أكثر.

- خطر لنا أن في مقدور السيدة لي أن تستخدمه، ولكننا لم نجد لها أثراً، وإن كنا قد عثرنا على هذه. كنتُ أنوي أن أريها لكَ على كل حال.

وفتح درجاً وأخرج منه قدّاحة ذهبية صغيرة دقيقة الصنع يدلّ مظهرها على أنها من تلك التي تستعملها النساء، وعليها الحرف الأول من اسم صاحبتها: «ك».

- إنها ليست ملكاً لزوجتك، أليس كذلك؟

- نعم؛ فإن اسمها لا يبدأ بحرف الكاف، ولا تملك أي شيء من هذا النوع، وهي ليست ملكاً للآنسة أندرسون كذلك؛ لأن اسمها غريتا.

- وجدناها هناك على أرضية الغرفة، إنها قدّاحة ثمينة.

قلتُ في تفكير: ك، لا أرى أحداً منا يبدأ اسمه بحرف الكاف فيما عدا كورا.

- حسناً، خذها معك واعرضها عليها.

- سأفعل، ولكن إن كان الأمر كذلك وإن كانت القداحة لكورا فنحن لم نرها في الخلوة أخيراً، فليس في الخلوة أثاث كثير ومن الممكن ملاحظة شيء كهذا فوق الأرض. هل كانت على الأرض؟

- نعم، بجوار الأريكة. في مقدور أي شخص أن يلجأ إلى هذه الخلوة طبعاً ما دامت في متناول الجميع، في استطاعة أي زوجين من العشاق الاجتماع فيه في أي وقت (أعني العشاق المحليين)، وليس من المعقول أن يملك أحد منهم مثل هذه القداحة الثمينة.

- هناك كلوديا هارد كاسل، ولكنني لا أظن أنها تملك مثل هذه القدّاحة الرقيقة ولا أرى ماذا يمكنها أن تفعل في تلك الخلوة.

- إنها صديقة لزوجتك، أليس كذلك؟

- بلى، بل أعتقد أنها أعز صديقة.

قال الضابط كين: آه.

نظرتُ إليه بشيء من الحيرة قائلاً: لعلك لا تظن أن كلوديا هارد كاسل كانت عدوة لإيللي؟ إن هذا سيكون سخفاً.

- أنا أوافقك الرأي على أنه لا يبدو أن هناك سبباً لذلك؛ ولكنكَ لا يمكنكَ أن تفهم النساء أبداً.

- أظن...

ثم أمسكتُ لساني لأن ما كنت أنوي قوله كان سيبدو غريباً، فقال كين: نعم يا سيد روجرز؟

- أظن أن كلوديا هارد كاسل كانت متزوجة في الأصل من أمريكي، رجل أمريكي يُدعى لويد، وهذا اسم أحد الأوصياء الذين يتولون الإشراف على شؤون زوجتي المالية في أمريكا، ستانفورد لويد. ولكن هناك آلافاً في أمريكا بهذا الاسم، وأعتقد أنها ستكون مصادفة عجيبة لو أنه هو نفس الرجل!

- لا أظن ذلك.

- والغريب في الأمر أنه خُيِّل لي أنني رأيتُ ستانفورد لويد في الجوار يوم الحادث، كان يتناول طعام الغداء في مطعم جورج ببارتنجتون مانو.

- ألم يذهب لزيارتك؟

هززتُ رأسي قائلاً: كان مع سيدة بدَت لي كما لو كانت هي كلوديا هارد كاسل، ولكنني كنتُ مخطئاً طبعاً، ولعلك تعرف أن أخاها هو الذي بنى البيت.

- وهل أبدَت اهتماماً ببيتك؟

- لا، فلا أظنها تميل إلى فنون أخيها في البناء. ونهضتُ قائلاً: حسناً، لن أشغل وقتك أكثر من هذا، حاول أن تجد الغجرية.

- لن نكف عن البحث عنها، تأكد من هذا؛ فالمحقق يريد استجوابها.

ودّعتُه وغادرت قسم الشرطة. ومن عجيب الصدف أنك لا تكاد تتكلم عن شخص ما إلا وسرعان ما تلتقي به، فقد خرجَت كلوديا هارد كاسل من مكتب البريد وأنا أمرّ به! وتوقف كل منا، وقالت في هذا الارتباك اليسير الذي يتملك الإنسان حين يلتقي بشخص: أنا جد آسفة يا مايك لما وقع لإيللي، لن أقول لك أكثر من هذا لأن من الفظاظة حقاً أن يحاول المرء قول شيء ما في مثل هذه الظروف، ولكن كان لا بد من إبداء أسفي.

- أعلم أنك كنتِ كريمة مع إيللي؛ فلقد جعلتِها تشعر كأنها كانت في بيتها، أشكرك كثيراً.

- هناك شيء أردت أن أسألك إياه، وأظن أنه من الأفضل أن أسألك عنه الآن قبل رحيلك إلى أمريكا؛ فقد سمعتُ أنك ذاهب إليها قريباً.

- بل بأسرع ما أستطيع؛ فهناك مسائل معلَّقة أريد إنهاءها.

- حسناً، إن كنتَ تنوي أن تعرض البيت للبيع (لأنني أرى أنه من الأفضل أن تفعل قبل رحيلك) وإن كان الأمر كذلك فأنا أحب أن أكون أول المتقدِّمين بحق الشفعة.

نظرتُ إليها وقد دُهشتُ حقاً؛ فقد كان هذا آخر شيء أتوقعه منها وقلت: هل تعنين أنكِ تودين شراءه؟ ظننتُك لا تهتمين بمثل هذا الطراز من المعمار.

- قال لي رودلف إنه أحسن بيت صمّمه وبناه، وأستطيع القول إنه أكثر مَن يعرف ما يقول، وأتوقع أنك ستطلب مبلغاً كبيراً ولكنني أستطيع دفع ما تريد لأنني أحب شراءه.

هززتُ رأسي ببطء قائلاً: أتحسبين أنني سأبيع المكان وأغادره بسبب موت إيللي؟ إن الأمر غير ذلك كلية؛ فقد عشنا هنا وكنا سعيدين، وهذا هو المكان الذي سأستطيع تذكرها فيه أفضل من أي مكان آخر. لا، لن أبيع أراضي الغجر لأي سبب من الأسباب.

وتلاقت عيناها بعينَيّ. كان الأمر أشبه بالصراع بيننا، ولكنها لم تلبث أن أطرقَت فجمعتُ كل شجاعتي وقلتُ: ليس هذا شأني طبعاً، ولكنكِ تزوجتِ مرة، فهل كان اسم زوجك ستانفورد لويد؟

نظرَت إليّ لحظة من غير أن تنطق ثم ردّت بإيجاز: نعم.

* * *

الفصل التاسع عشر

ارتباك شديد.

هذا هو كل ما أستطيع أن أذكره حين أعود بذهني إلى الوراء؛ حشد من الصحفيين يلقون الأسئلة ويطلبون الأحاديث، تلال من الرسائل والبرقيات تولت غريتا أمرها كلها. وكانت أولى المفاجآت الحقيقية هي أن أسرة إيللي لم تكن كلها في أمريكا في ذلك الوقت كما كنا نعتقد، وكانت صدمة كبيرة لنا حين تحققنا أن أكثرهم كانوا موجودين فعلاً في إنجلترا.

ولعله كان من المفهوم أن تكون كورا فان ستويفيزايت موجودة في إنجلترا؛ فهي امرأة قلقة غير مستقرة تسرع إلى أوروبا في كل وقت. وفي اليوم الذي لقيَت فيه إيللي حتفها لم تكن تبعد كورا عنا أكثر من خمسين ميلاً، كانت تجري وراء نزوتها في شراء بيت في إنجلترا، وكانت قد انتقلت إلى لندن وبقيَت فيها يومين أو ثلاثة ثم مضت إلى السماسرة وأخذت تنتقل معهم فرأت ستة أو سبعة بيوت في ذلك اليوم. واتضح أن ستانفورد لويد استقل نفس الطائرة لحضور اجتماع له صلة بالعمل في لندن. ولقد علم كل منهما بموت إيللي من الجرائد

المحلية لا من البرقيات التي أرسلناها إلى الولايات المتحدة.

ودار نزاع بغيض حول المكان الذي يجب أن تُدفَن فيه؛ فقد رأيتُ أن من الطبيعي أن تُدفَن هنا حيث ماتت وحيث عشنا أنا وهي، ولكن أسرة إيللي اعترضت على ذلك أشد الاعتراض وصمّموا على أن يُنقَل الجثمان إلى أمريكا كي تُدفَن هناك مع أجدادها، حيث دُفِنَ جدها وأبوها وأمها والآخرون، وأظنه أمر طبيعي حقاً إذا ما أمعنا التفكير فيه.

أقبل أندرو ليبنكوت يتحدث معي في هذا الصدد، ووضّح الأمور بطريقة معقولة فقال: إنها لم تترك أية معلومات عن المكان الذي تريد أن تُدفَن فيه.

فقلتُ بحدّة: ولماذا تترك تعليمات ما؟ كم كانت تبلغ من العمر؟ لا أظن أحداً كان يتوقع أن يموت وهو في الحادية والعشرين ولا أظنه يفكر في المكان الذي يُدفَن فيه! لو أننا فكرنا في هذا الشأن لقررنا أن نُدفَن هنا معاً حتى ولو لم نَمُت في وقت واحد، ولكن... مَن الذي يفكر في الموت وهو في ريعان الصبا؟

قال ليبنكوت: ملاحظة وجيهة حقاً. ثم أردف يقول: أخشى أنه لا بد لكَ من المجيء إلى أمريكا؛ فهناك مصالح كثيرة يجب إلقاء نظرة عليها.

- أية مصالح؟ وما شأني بالأعمال؟

- سيتعيّن عليكَ أن تهتم بها، ألا تدرك أنك المستفيد الرئيسي بمقتضى الوصية؟

- هل تعني لأنني أقرب قريب لإيللي؟

- بل بمقتضى الوصية.

- لم أعرف أنها حرّرت وصية!

- لقد كانت إيللي سيدة أعمال بارعة، وكان لا بد لها أن تكون كذلك؛ فقد عاشت في هذه البيئة. لقد حرّرَت وصية بمجرد بلوغها سن الرشد وعقب زواجها مباشرة تقريباً، حررتها عند محاميها في لندن وطلبت منه أن يرسل إليّ صورة منها. وتردّد ثم قال: إذا أتيتَ إلى الولايات المتحدة (وهو ما أنصحك به) فأظن أن من الأفضل أن تعهد بكل أعمالك إلى محام معروف هناك.

- ولماذا؟

- لأنه حين تكون هناك ثروة كبيرة وعدد ضخم من العقارات والسندات والمصالح المختلفة فلا بد من الحاجة لمشورة فنية.

- أنا غير كفء لمعالجة مثل تلك الأمور، غير كفء حقاً.

قال السيد ليبنكوت: أفهم ذلك.

- ألا أستطيع أن أعهد إليك بها؟

- بلى، تستطيع ذلك طبعاً.

- حسناً، لماذا لا أفعل إذن؟

- لأنه لا بد لأحد من أن يرعى شؤونك منفصلاً؛ فأنا الآن أرعى شؤون بعض أفراد الأسرة مجتمعين وقد ينتج عن ذلك بعض المشاكل، فإن أنت عهدتَ إليّ بكل أعمالك فسوف أحرص على أن تبقى مصالحكَ في أمان بأن أعهد بها لمحام قدير.

- أشكرك، أنت رجل كريم جداً.

نظر إليّ بشيء من الضيق وقال: إذا سمحتَ لي بأن أكون فضولياً؟

فأطربني فيه هذا القول وقلت: نعم.

- أنصحك بأن تتوخى الحذر في كل ما يُقدَّم إليكَ من أوراق للتوقيع؛ اقرأ كل مستند يُقدَّم إليك في اهتمام كبير وعناية أكبر قبل أن توقع عليه.

- وهل أستطيع فهم شيء إذا قرأتُ هذا المستند؟

- إذا استعصى عليك أي شيء فالجأ لنصيحة محاميك.

قلتُ في شيء من الاهتمام فجأة: هل تحذّرني من شخص معين؟

أجاب السيد ليبنكوت: إنه سؤال خاص لا أستطيع الرد عليه، وسأذهب لأبعد من ذلك فأقول: حين يتعلق الأمر بمبالغ كبيرة فمن الأفضل ألاّ تثق في أحد.

وهكذا كان يحذّرني من شخص ولكنه لم يشأ ذكر أي

اسم، فرأيتُ نفسي فجأة فتى غراً يسبح في بركة مملوءة بتماسيح شريرة ارتسمَت على وجوهها ابتسامات الود الزائف. قال السيد ليبنكوت: الدنيا مملوءة بالشرور.

وربما كان ذلك سخفاً مني، ولكنني سألته فجأة: هل يستفيد أحد ما مِن موت إيللي؟

نظر إليّ في حدة وقال: هذا سؤال غريب جداً. لماذا تسأله؟

- لا أدري، إنه مجرد سؤال خطر لي.

- أنت المستفيد.

- طبعاً؛ فهذا أمر طبيعي، وإنما عنيتُ هل هناك مَن يستفيد غيري أنا؟

لزم السيد ليبنكوت الصمت مدة طويلة ثم قال: إذا كنتَ تريد أن تسأل إذا كانت إيللي قد أوصَت بشيء ما لأشخاص معنيين فأقول لكَ إنها قد فعلَت ذلك في حدود ضيقة؛ فقد أوصَت بمبالغ من المال لبعض الخدم القدامى ولمربية عجوز، ولجمعية أو جمعيتين خيريتين، وأوصت كذلك بمبلغ من المال للآنسة أندرسون، لكنه ليس بالمبلغ الكبير نظراً إلى أنها سبق أن كافأتها بمكافأة كبيرة قبل ذلك.

أومأتُ برأسي؛ فقد أخبرتني إيللي أنها فعلت ذلك.

- لقد كنتَ زوجها، فلم يكن لها أقارب غيرك، ولكنني أعتقد أنك لم تكن تقصد هذا بالذات بسؤالك.

- لا أدري ماذا كنتُ أقصد بالتحديد! ولكن مهما يكن فلقد أفلحتَ يا سيد ليبنكوت في أن تزرع في نفسي بذور الشك، ولكنني لا أدري فيمَن أشك؟ لقد أصبحتُ متشككاً فحسب لأنني لا أفهم شيئاً في شؤون المال.

- إنه واضح كل الوضوح، دعني أقل لك إنني لا أعلم شيئاً بالذات وليس لديّ أي شك حقيقي، ولكن حين يموت أحد يسارعون بحصر جميع أمواله وممتلكاته ويقدمون بياناً عنها، ولكن قد يُقدَّم ذلك البيان عقب موته مباشرة وقد يُقدَّم بعدها بعدة سنوات.

- معنى قولك أن بعضهم قد ينتهز الفرصة لكي يحصل على مستندات تخوله الحصول على شيء ليس من حقه، أو أن أحدهم قد يحاول حملي على توقيع تنازل ما.

- إن أعمال إيللي متسعة، وقد يكون موتها الفجائي مناسباً لشخص ما. لن أذكر أسماء، ولكن قد يحاول ذلك الشخص أن يستغل طيبة شاب بسيط مثلك، ولا أريد الكلام أكثر من ذلك في هذا الموضوع فليس من الإنصاف أن أفعل.

* * *

كانت الجنازة بسيطة أُقيمَت في الكنيسة الصغيرة، ولو أنني استطعتُ الابتعاد عنها لفعلتُ؛ فلقد كرهتُ كل هؤلاء الأشخاص الذين راحوا يحملقوا فيّ وهم وقوف خارج الكنيسة. ولقد شقَّت غريتا لي طريقاً بينهم، ولا أظنني أدركتُ -حتى ذلك الوقت- ما تتمتع به من شخصية قوية ولا إلى أي

حد يمكن أن يُعوَّل عليها؛ فقد قامت بكل التدابير الضرورية فأتت بباقات الورد ودبّرت كل شيء. وأصبحتُ أفهم الآن كيف كانت إيللي تعتمد عليها، فليس في العالم كثيرات منها.

كان معظم الذين وُجِدوا في الكنيسة من جيراننا، بل إن بعضهم كانوا ممن تعرفنا بهم من قريب، ولكنني لاحظتُ وجهاً سبق أن شاهدته وإن كنتُ لم أستطع معرفة صاحبه في تلك اللحظة. وحين عدتُ إلى البيت قال لي كارسون إن هناك رجلاً ينتظر في غرفة الاستقبال، فقلتُ له: لا أستطيع مقابلة أحد اليوم، اصرفه. ما كان لكَ أن تدعه يدخل.

- معذرة يا سيدي، ولكنه قال لي إنه قريبٌ لك.

- قريب؟

وفجأة تذكرتُ الرجل الذي رأيتُه في الكنيسة. وناولني كارسون بطاقة لم أستدل منها على شيء ما: «السيد ويليام باردو». قلّبتُها في يديّ وأنا أهز رأسي، ثم ناولتُها بدوري لغريتا وأنا أقول: هل تعرفين مَن هو؟ إن وجهه يبدو مألوفاً لي ولكنني لا أستطيع معرفته، لعله أحد معارف زوجتي.

فأخذَت غريتا البطاقة ونظرَت إليها ثم قالت: أنا أعرفه.

- مَن هو؟

- إنه الخال روبين. هل تذكر ابن خال إيللي، لا ريب أنها قد حدثَتك عنه.

وعرفتُ عندئذ لماذا بدا وجهه مألوفاً؛ فقد كانت إيللي

تحتفظ في غرفة الجلوس بمجموعة من الصور لأقاربها، ولذا بدا وجهه مألوفاً لأنني رأيتُه أكثر من مرة في إحدى تلك الصور. وقلتُ: أنا قادم.

خرجتُ من الغرفة وذهبتُ إلى غرفة الاستقبال، فنهض السيد باردو واقفاً وقال: مايكل روجرز؟ ربما لا تعرف اسمي ولكن زوجتك كانت ابنة خالي، كانت تدعوني بالخال روبين دائماً، ولكننا لم نلتق؛ فهذه أول مرة آتي فيها إلى إنجلترا منذ أن تزوجتما.

- أنا أعرف مَن أنت طبعاً.

ولا أدري تماماً كيف أصف روبين باردو؛ فقد كان رجلاً طويل القامة ضخم الجسم عريض الوجه منبسط الأسارير، يبدو عليه الشرود كما لو كان يفكر في شيء آخر، ولكن ما إن تتحدث معه بضع دقائق حتى تشعر بأنه معك قلباً وقالباً. قال: لا حاجة بي إلى القول إنني قد أُصبتُ بأكبر صدمة حين سمعتُ بموت إيللي.

- دعنا من ذلك لأنني لا أريد التحدث بالموضوع.

بدا رقيقاً، ومع ذلك فقد كان ينبع منه شيء جعلني أشعر بالارتباك والضيق، فقلت حين دخلَت غريتا: هل تعرف الآنسة غريتا؟

- طبعاً، كيف حالكِ يا غريتا؟

- لا بأس. منذ متى وأنت في إنجلترا؟

- منذ أسبوع أو أسبوعين أطوف بالبلاد.

استطردتُ أقول مندفعاً فجأة: لقد رأيتُكَ منذ أيام قلائل.

- حقاً؟ أين؟

- في صالة المزادات ببارنتجتون مانور.

- بدأتُ أتذكر الآن. نعم، نعم، بدأتُ أذكر وجهك؛ كنتَ تجلس مع رجل في نحو الستين من عمره له شارب أسمر.

- نعم، الميجور فيليبوت.

- كنتما في منتهى الغبطة والابتهاج.

- لم أكن في حياتي أسعد مما كنتُ في ذلك اليوم.

وعدتُ أقول وأنا لا أزال أشعر بذلك الإحساس الغريب الذي أحسستُ به في ذلك اليوم: لم أكن في حياتي أسعد مما كنتُ حقاً.

- لم تكن في ذلك الوقت قد عرفتَ ما حدث طبعاً. كان ذلك في اليوم الذي وقع فيه الحادث، أليس كذلك؟

- كنا نتوقع أن تلحق إيللي بنا لتناول الغداء.

قال الخال روبين: يا للمأساة، يا للمأساة!

- لم أكن أعرف أنك في إنجلترا، ولا أظن أن إيللي كانت تعرف ذلك هي الأخرى.

أمسكتُ عن الكلام بانتظار ردّه فقال: نعم، فلم أكتب إليها بذلك. لم أكن أعرف إلى متى سأبقى هنا، ولكنني فرغتُ من عملي مبكراً على غير ما كنتُ أتوقع، وكنت أتساءل بعد المزاد إذا كان وقتي يسمح لي بزيارتكما.

- هل جئتَ من الولايات المتحدة لأجل العمل؟

- حسناً، نعم ولا؛ فقد أرادت كورا نصيحتي في نقطة أو نقطتين، إحداهما تتعلق بالمنزل الذي نفكر في شرائه.

وكان أن أخبرني -في تلك المناسبة- إن كورا في إنجلترا، فعدتُ أقول: لم نكن نعرف حتى هذا.

- لم تكن تقيم في ذلك اليوم بعيداً عنكما.

- لم تكن بعيداً عنا؟ هل كانت في الفندق؟

- لا، بل كانت تقيم مع صديقة.

- لم أكن أعلم أن لها صديقة في هذا الجزء من العالم!

- صديقة اسمها... ترى ما اسمها؟ هارد، هارد كاسل.

صحتُ أقول مشدوهاً: كلوديا هارد كاسل؟!

- نعم، كانت صديقة لكورا، وكانت كورا تعرفها منذ أن كانت في الولايات المتحدة. ألم تكن تعرف؟

- أنا لا أعرف إلا القليل، القليل جداً عن العائلة.

ونظرتُ إلى غريتا قائلاً: هل كنتِ تعلمين أن كورا تعرف كلوديا هارد كاسل؟

ردّت غريتا: لا أظنني سمعتها تتحدث عنها. هذا هو السبب إذن في أن كلوديا لم تأتِ في ذلك اليوم؟

- طبعاً؛ فقد كانت تنوي الذهاب معكِ إلى لندن بالقطار وكنت ستلتقين بها في محطة ماركيت شارويل؟

- نعم، لكنها لم تأتِ، بل اتصلَت بي هاتفياً قبل أن أخرج وقالت إن زائرة أمريكية أقبلَت فجأة وإنها لا تستطيع مغادرة البيت.

- إنني أتساءل إذا لم تكن كورا هي تلك الزائرة؟

قال روبين باردو: هذا شيء واضح. ثم هزّ رأسه واستطرد: إن الأمر يبدو مضطرباً، أظن أن التحقيق قد أُجِّل؟

قلتُ: نعم.

نهض واقفاً وقال: لن أزعجكما أكثر من ذلك، إذا كان هناك ما أستطيع عمله فأنا مقيم في فندق ماجستيك بماركيت شارويل.

- أخشى ألاّ يوجد ما تستطيع عمله.

فانصرف روبين باردو وقالت غريتا: إنني أتساءل ماذا يريد ولماذا أقبل؟ ثم استطردت في حدة: وددتُ لو يعودوا جميعاً من حيث جاؤوا.

* * *

الفصل العشرون

بعد وصولي إلى نيويورك بأربعة أيام جاءتني أنباء من كينجز بيشوب؛ فقد عثروا على جثة السيدة لي في المحجر المهجور الواقع في طرف الجبل، وكان موتها يرجع لأيام مضت.

كانت قد وقعَت حوادث عديدة في ذلك المكان من قبل وبسببها كانت هناك نية لبناء سور حوله، وقد أصدر المحلفون قرارهم بأن الوفاة حدثت قضاء وقدراً، ورفعوا رجاء للمجلس القروي بسرعة بناء السور حول المكان منعاً لتكرار الحوادث. وعثروا في كوخ السيدة لي على ثلاثمئة جنيه مُخبَّأة تحت ألواح الأرضية، وكانت كلها من فئة الجنيه الواحد!

وأضاف الميجور فيليبوت حاشية يقول فيها: "وأنا واثق أنك ستشعر بالحزن حين تعلم أن كلوديا هارد كاسل وقعَت من فوق جوادها أمس، وأنها ماتت على الفور".

كلوديا هارد كاسل؟!

لم أستطع أن أصدق ذلك فأخذني الغثيان بصورة مريعة!

شخصان يقعان عن ظهرَي جوادَيهما ويلقيان حتفهما في أقل من أسبوع! بدا كأن الأمر صدفة بعيدة التصديق.

* * *

لا أريد الإسهاب في تلك الفترة التي قضيتُها في نيويورك؛ فقد كنتُ غريباً وكان الجو نفسه غريباً، فأحسستُ -خلال الوقت الذي قدرته هناك- بأنه يجب توخي الحذر في كل قول وكل فعل.

إن إيللي التي أعرفها والتي كانت تنتمي إليّ بتلك الطريقة الغريبة لم تكن هناك، فقد رأيتُها الآن (والآن فقط) فتاة أمريكية ووريثة ثروة كبيرة، يحيط بها الأصدقاء والمعارف والأقارب البعيدين وتنتمي إلى أسرة تعيش في أمريكا منذ خمسة أجيال، جاءت من هناك كما لو كانت صاروخاً وزارت موطني زيارة قصيرة.

أما الآن وقد عادت لكي تُدفَن مع أسرتها حيث موطنها فقد اغتبطتُ لذلك؛ فما كنت لأشعر بالارتياح لو أنها كانت قد دُفِنت هناك، في تلك المقبرة الصغيرة على سفح غابة الصنوبر خارج القرية. نعم، ما كنتُ لأشعر بالارتياح أبداً.

وقلتُ أحدث نفسي: عودي على حيث تنتمين يا إيللي.

ومن حين لآخر كانت تلك المقطوعة الغنائية التي اعتادت أن تغنيها وهي تجري بأصابعها على قيثارتها تلاحقني وتعود إلى ذهني باستمرار:

كل صبح وكل ليل،
يولد البعض للسعادة والهناء.

وقلتُ أخاطب نفسي: هذا صحيح، بالنسبة لكِ أنت يا إيللي؛ فلقد ولدتِ للسعادة والهناء. كنتِ سعيدة هناك في أراضي الغجر، ولكن سعادتك كانت قصيرة، لكنكِ عدتِ إلى بيتك على كل حال، فأنتِ الآن بين عشيرتك.

وتساءلت فجأة: أين سيدفنونني حين أموت؟ أفي أراضي الغجر؟ هذا جائز، ستأتي أمي وتراني وهم يوسّدونني التراب، ذلك إذا لم تكن قد ماتَت قبلي، ولكنني لم أستطع أن أتصور أنني سأموت قبلها. نعم، ستأتي وتراني وهم يُهيلون عليّ الثرى، ولعلّ قسمات وجهها تسترخي وتنبسط عندئذ وتزول عنها صرامتها.

وطرحتُها من أفكاري؛ فلم أشأ أن أفكر فيها. لم أشأ أن أذهب إليها أو أن أراها، ومع ذلك فإن الخطوة الأخيرة تبعد عن الحقيقة، فما كان لي أن أذهب لكي أراها، كانت هي التي تسعى دائماً إلى رؤيتي بعينين تسبران غوري وتستشفّان أعماقي بشيء من القلق والجزع.

لماذا يجب للأم أن تحتضن أولادها وأن تهتم بهم دائماً؟ لماذا يشعرون بأنهن يعرفن كل شيء عنهم في حين أنهن لا يعرفن شيئاً على الإطلاق؟ كان يجب أن تفخر أمي بي وأن تغمرها السعادة، السعادة للحياة العجيبة التي وصلتُ إليها، كان يجب... ولكنني لم ألبث أن طرحتها من رأسي ثانية.

كم من الوقت بقيتُ في الولايات المتحدة؟ لا أستطيع أن أذكر جيداً. بدا لي أنني قضيت فيها عمراً طويلاً وأنني قضيته في السير في حذر، ينظر الناس إليّ وعلى وجوههم ابتسامات زائفة وفي عيونهم عداء سافر. وكنتُ أقول لنفسي كل يوم: يجب أن أفرغ من هذا ويجب أن أتم هذا... صرتُ أستخدم هذه الكلمات كما كنتُ أستخدم من قبل كلمة أريد، أريد...

وراح الجميع يتقربون إليّ ويتملقونني ويعاملونني في رفق ورقّة لأنني كنت ثرياً؛ فقد أصبحتُ -بمقتضى وصية إيللي- رجلاً واسع الثراء، وكان هذا أمراً غريباً. كنتُ أملك استثمارات عديدة لا أدري عنها شيئاً: أسهماً وسندات ومحلات تجارية وعقارات مختلفة، ولم أكن أعرف عنها شيئاً أبداً.

فماذا أفعل بكل هذا؟

وفي اليوم السابق لرحيلي إلى إنجلترا دار بيني وبين السيد ليبنكوت حديث طويل. كنت أعتبره السيد ليبنكوت دائماً ولم يخطر لي أبداً أن أدعوه بالعم أندرو، وقلتُ له إنني فكرتُ في سحب جميع استثماراتي من ستانفورد لويد.

رفع حاجبيه ونظر إليّ بعينيه الحادتين ووجهه الجامد وقال: حقاً؟

وتساءلتُ بيني وبين نفسي ماذا يعني بكلمة «حقاً» هذه؟ وسألته في قلق: هل تعتقد أن من الصواب فعل هذا؟

- أظن أن لديك أسباباً تدفعك لهذا؟

- لا، ليس لديّ أية أسباب، إنما هو إحساس داخلي. أظنني أستطيع مصارحتك بكل شيء.

- إن ما يدور بيننا سيبقى سراً طبعاً.

- حسناً، لديّ إحساس بأنه غير مستقيم.

بدا الاهتمام على السيد ليبنكوت وقال: نعم، أستطيع القول إن إحساسك صحيح.

عرفتُ عندئذ أنني كنتُ على صواب؛ فقد كان ستانفورد لويد محتالاً يمارس النصب في جميع استثمارات إيللي، فوقّعتُ على تفويض شامل وأعطيتُه لأندرو ليبنكوت قائلاً: هل تقبل هذا التفويض؟

- لك أن تثق بي كل الثقة، سأبذل جهدي لأرضيَكَ في كل ما يتصل بالشؤون المالية، ولا أظنك ستجد سبباً للشكوى.

وتساءلتُ: ماذا يعني بكلماته هذه؟ كان يعني شيئاً من غير شك، أظنه كان يريد أن يقول إنه لا يميل إليّ وإنه لم يشعر نحوي بأي ميل، ولكنه سيبذل جهده -على الرغم من ذلك- لإرضائي لأنني كنتُ زوج إيللي.

ووقعتُ على الأوراق الضرورية، وسألني عندئذ كيف سأعود لإنجلترا؟ هل سأعود بالطائرة؟ أجبته: لا، لن أستقل الطائرة بل سأعود بطريق البحر. وأردفتُ أقول: أريد أن أخلو بنفسي قليلاً وأظن أن السفر بالبحر سيكون خيراً لي.

- وأين ستجعل إقامتك في إنجلترا؟

- في أراضي الغجر.

- آه، هل تنوي الإقامة هناك؟

- نعم.

- حسبت أنك قد تعرضه للبيع.

- لا.

خرجَت الكلمة من شفتيّ أقوى مما كنتُ أريد؛ فأنا لن أتخلى عن أراضي الغجر، فقد كانت جزءاً من أحلامي، الأحلام التي ظلت تراودني منذ كنت طفلاً غراً.

- هل هناك مَن يعنى به أثناء إقامتك في الولايات المتحدة؟

قلتُ له: لقد تركتُه في عناية غريتا أندرسون.

- نعم، غريتا!

كان يقصد شيئاً بالطريقة التي نطق بها اسم غريتا ولكنني لم أعبأ به، إذا كان يكرهها فهو يكرهها، وقد كرهها دائماً.

وساد بيننا صمت، ثم غيّرتُ مجرى الحديث؛ فقد شعرتُ بأنه لا بد لي من قول شيء فقلتُ: كانت كريمة ومخلصة جداً مع إيللي؛ فقد عنيَت بها وهي مريضة وأقبلَت وأقامَت معنا وسهرَت على إيللي. لن أستطيع أن أوفيها حقها من الشكر والامتنان أبداً وأحب أن تفهم هذا. لا يمكن أن تعرف كم كانت شديدة النفع لنا، لا يمكن أن تعرف كيف ساعدتنا ولا كيف قامت بكل شيء بعد مصرع إيللي، وما كنتُ لأدري ماذا كنتُ فاعلاً مِن غيرها.

قال السيد ليبنكوت: هكذا، هكذا.

وكان صوته أشد جفاء من أي وقت مضى!

- وهكذا ترى أنني أدين لها بالكثير.

- إنها فتاة قديرة.

نهضتُ مودعاً وشكرتُه فقال في جفائه المعهود: ليس هناك ما تشكرني عليه. ثم أردف يقول: لقد كتبتُ لكَ رسالة قصيرة وأرسلتُها بالطائرة إلى أراضي الغجر، فإذا كنتَ عائداً بطريق البحر فستجدها هناك بانتظارك. واستطرد: أرجو لكَ رحلة طيبة.

* * *

حين عدتُ إلى الفندق وجدتُ برقية تطلب مني الذهاب إلى مستشفى بكاليفورنيا يخبرونني فيها بأن صديقاً لي اسمه رودلف سانتونيكس طلب أن يراني وأنه لن يعيش طويلاً وأنه يريد رؤيتي قبل أن يموت.

غيّرتُ موعد سفري وحجزتُ لي مكاناً على باخرة أخرى، وأخذتُ الطائرة إلى سان فرانسيسكو. ولم يكن رودلف قد مات ولكنه كان يخطو إلى الموت بخطى واسعة. كانوا غير واثقين من أنه سيعود إلى رشده قبل أن يموت، ولكنه سأل عني كثيراً.

وجلستُ هناك في غرفة المستشفى أنظر إليه، أنظر إلى هيكل الرجل الذي أعرفه. كان يبدو مريضاً دائماً، كان غارقاً

في نوع من الشفافية والرقة والوهن، يرقد بوجهه الشاحب الذي يعلوه شبح الموت، وجلستُ مكاني أفكر وأقول: أتمنى أن يتحدث إليّ، أتمنى أن يقول لي شيئاً قبل أن يموت.

شعرتُ بأنني وحيد، وحيد جداً؛ هربتُ من الأعداء الآن وذهبتُ إلى صديق، صديقي الوحيد حقاً. كان هو الرجل الوحيد الذي يعرف عني شيئاً فيما عدا أمي، ولكنني لم أكن أريد أن أفكر بأمي. خاطبتُ الممرضة مرة أو مرتين وسألتُها إذا لم يكن هناك ما أستطيع عمله من أجله، ولكنها اكتفت بالقول: ربما يعود إلى رشده وربما لا يعود.

وجلستُ مكاني، وأخيراً تحرك وتنهد فرفعَته الممرضة في رفق ونظر إليّ، ويبدو أنه عرفني. سكت فجأة وقال: أنت أيها الأحمق الملعون، لماذا لم تسلك الطريق الآخر؟!

ثم شهق وفاضت روحه دون أن أدرك ماذا كان يعني بهذه الكلمات!

* * *

الفصل الحادي والعشرون

كنتُ عائداً إلى بيتي وقد انتهى كل شيء؛ فقد فرغتُ من المعركة الأخيرة وانتقلت إلى المرحلة الأخيرة من الرحلة. زمن شبابي القلِق ولّى وبدا لي بعيداً، بعيداً جداً؛ ذلك الزمن الذي كنتُ أقول فيه: أريد وأتمنى... ولكنه لم يكن بعيداً مع ذلك؛ فلم تمضِ عليه أكثر من سنة.

وتمددتُ فوق الفراش في مقصورتي ورحتُ أستعيد الماضي: لقائي بإيللي، ومقابلاتنا في رجنت بارك، وزواجنا في مكتب التوثيق، والمنزل وبناء سانتونيكس له، وفراغه من ذلك. بيتي، بيتي... بيتي أنا وحدي، بيتي كما أردتُه أن يكون وكما تمنيت. لقد حصلتُ عليه أخيراً، وها أنذا عائد إليه.

قبل أن أغادر نيويورك كتبتُ رسالة وأرسلتُها بالطائرة لكي تصل قبلي. كتبتُ إلى فيليبوت؛ فقد شعرتُ بأنه سيفهمني أكثر من غيره. كان من الهيّن أن أكتب بدلاً من أحدثه شفاهة، ومهما يكن من أمر فلا بد له أن يعرف ولا بد من أن يعرف الجميع.

هناك مَن لن يفهم طبعاً، أما هو فقد خطر لي إنه سيفهم، وقد رأى بنفسه مدى ارتباط إيللي بغريتا ورأى أن إيللي كانت

تعتمد علي غريتا في كل شيء. خطر لي أنه سيدرك أنه لا بد لي من أن أعتمد على غريتا أنا أيضاً وأن من المحال أن أعيش وحدي في المنزل الذي عشتُ فيه أنا وإيللي إلا إذا كان هناك شخص آخر أستطيع أن أعتمد عليه وأن أركن إليه، ولا أدري إذا كنتُ قد أحسنتُ الكتابة أم لا؟ ولكني بذلتُ جهدي.

كتبتُ إليه أقول: أريد أن تكون أول مَن يعلم؛ فقد كنتَ كريماً معي، وأظن أنك أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يقدِّر موقفي؛ فأنا لا أستطيع التفكير، مجرد التفكير، في الإقامة وحدي في أرض الغجر. لقد فكرتُ طوال الوقت الذي قضيته في أمريكا واستقرت نيتي بمجرد عودتي لإنجلترا أن أطلب من غريتا أن تتزوجني؛ فهي الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أحدثه عن إيللي وسوف تفهمني. لعلها لن تقبل أن تتزوجني، ولكنني أظنها ستفعل لأنني سأشعر عندئذ بأننا ما زلنا نعيش نحن الثلاثة معاً.

كتبتُ الرسالة ثلاث مرات قبل أن أرى أنها ستعبِّر عما أريد قوله، وتأكدتُ من أن فيليبوت سيتسلمها قبل عودتي بيومين.

صعدتُ إلى سطح الباخرة ونحن نقترب من إنجلترا ونظرتُ إلى الشاطئ وأنا أقول لنفسي: ليت سانتونيكس معي الآن. ووددتُ لو كان معي فيرى أن كل شيء بالنسبة لي قد تحقق حقاً كما تمنيتُ وكما رسمتُ، كل شيء.

لم يرني أحد عند وصولي إلى كنسنجتون بيشوب؛ فقد كان الوقت يكاد يكون ليلاً حين هبطتُ من القطار. ومشيتُ من المحطة وسلكتُ الطريق الملتوية لأنني لم أشأ أن ألتقي

بأحد من الأهالي. لم أشأ أن ألتقي بأحد منهم في تلك الليلة بالذات.

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق حين بلغتُ الطريق المؤدية إلى بيت الغجر، وكنتُ قد أخبرتُ غريتا بالساعة التي سأصل فيها وكانت هناك بالبيت في انتظاري. أخيراً انتهَت الأكاذيب والادعاءات؛ ادعائي بالنفور منها، وتذكرتُ الآن -وأنا أضحك في سري- الدور الذي قمتُ به، ذلك الذي مثلتُه ببراعة منذ البداية: نفوري من غريتا ومعارضتي لقدومها والإقامة مع إيللي.

نعم، لقد كنتُ شديد الحرص والذكاء؛ فقد كان لا بد أن تجوز الخدعة على الجميع، وتذكرتُ الشجار الذي تناهى إلى سمع إيللي. عرفتني غريتا على حقيقتي منذ أن التقينا لأول مرة؛ لم يشعر أي منا بأي وهم كاذب فيما يتعلق بالآخر، كانت لها نفس أفكاري ونفس أملي. لم أخفِ طموحي عنها؛ فقد كان لها نفس الطموح هي الأخرى، وقالت: لكي تحصل على كل ما تريد من الحياة فلا بد لكَ من المال.

قلت: أعلم ذلك، ولكن كيف أستطيع الحصول عليه؟

قالت: ليس عن طريق العمل الشاق على كل حال؛ فأنت لم تُخلَق للعمل.

قلت: العمل؟ لا أريد أن أشقى وأن أعمل السنين الطوال، ولا أريد أن أصبر حتى خريف عمري. أريد أن تتحقق أحلامي

الآن وأنا لا أزال شاباً قوياً، ولعلكِ تريدين ذلك أنت أيضاً، أليس كذلك؟

قالت: بلى، وأنا أعرف الوسيلة التي تمكّنك من الحصول على المال. إنها وسيلة سهلة، ويدهشني أنك لم تفكر فيها قبل الآن؛ فأنت تدير رؤوس الفتيات بسهولة، ألا تعرف ذلك؟

قلت: وهل تظنينني أهتم بالفتيات أو تظنينني اهتممتُ بهن في أي وقت من الأوقات؟ إن هناك فتاة واحدة أريدها هي أنتِ، وأنتِ تعرفين ذلك؛ فأنا أحبكِ، عرفتُ أنني أحبكِ حين رأيتكِ، وكنتُ أعرف دائماً أنني سألتقي بفتاة مثلك، أنا أحبك.

فقالت غريتا: نعم، أظنك تحبني حقاً.

- كل منا يطلب من الحياة نفس الأماني.

- أقول لكَ إن الأمر يسير عليك، يسير جداً، كل ما عليك هو أن تتزوج بفتاة غنية، فتاة من أغنى الفتيات في العالم، ويمكنني أن أدبّر هذا الأمر.

- لا تكوني حمقاء.

- أنا لستُ حمقاء، أقول لكَ إن الأمر سيكون يسيراً.

- لا، هذا لا يناسبني؛ فلا أريد أن أغدو زوجاً لامرأة غنية تشتري لي ما أحتاج إليه وتوفر لي كل شيء وتحتفظ بي في قفص من ذهب، ليس هذا ما أريد، لا أريد أن أكون عبداً لامرأة.

- لن تكون عبداً لأن هذا لن يطول، لن يطول إلا بما لا بد منه؛ فالزوجات يمتنَ كما تعلم!

حدقتُ فيها مذهولاً فقالت: هل صدمتُ شعورَك؟

- لا.

- كنتُ أعرف ذلك، ولقد خطر لي أنك ربما...

نظرتُ إليها في تساؤل ودهشة، ولكنني حرصتُ على ألاّ أُرضي فضولها؛ فقد كنتُ لا أزال أضنّ عليها بمكنونات قلبي وخفايا نفسي، وليس ذلك لأنها أسرار لا أحب أن أفشيها فحسب وإنما لأنني لم أكن أريد مجرد التفكير فيها، بل لم أكن أريد التفكير في أول هذه الأسرار بالذات، وهو سر صبياني سخيف لا يعنيني من أمره شيء الآن؛ فقد رأيتُ في معصم أحد زملائي بالفصل ساعة جميلة تمنيتُ الحصول عليها بكل وسيلة، كانت ساعة ثمينة تساوي مبلغاً كبيراً من المال وكان أبوه الثري قد أهداه إياها بمناسبة عيد ميلاده. نعم، أردتُ الحصول عليها ولكنني لم أدرِ كيف أفعل، إلى أن جاء يومٌ ذهبنا فيه للتزحلق سوياً على الجليد، ولم تكن طبقة الجليد من القوة بحيث تحتمل ثقله فتحطمَت فجأة ووقع في حفرة من الماء وتشبث بسطح الجليد الذي أخذ يمزق أصابعه، فأسرعتُ إليه وانحنيتُ كي أجتذبه حين وقعت عيناي على الساعة في رسغه؛ فقلت أحدّث نفسي: ماذا لو أدفع به تحت الماء؟ وكان ذلك من أسهل الأمور! تم الأمر على غير وعي مني؛ فخلعتُ الساعة من رسغه ودفعتُ برأسه تحت الماء بدلاً من سحبه للخارج، فلم يتمكن من النضال كثيراً لأنه كان

تحت الثلج. ورآنا الناس من بعيد فأسرعوا إلينا وأخرجوه في شيء من الصعوبة، وحاولوا إنقاذه بطريقة التنفس الصناعي ولكنه كان قد مات؛ فأخفيتُ كنزي في مكان أمين مع بعض الأشياء الأخرى. ولم أكن أريد أن تراها أمي لأنها ستسألني عن مصدرها، ولكنها عثرت عليها ذات يوم مع بعض الجوارب الخاصة بي فسألتني: أليست هذه ساعة بيت؟

فأجبتها بالنفي طبعاً، وقلتُ لها إنني قايضتُ زميلاً لي عليها.

كنتُ أشعر بالقلق دائماً مع أمي، فطالما أحسستُ بأنها تعلم عني الكثير، وتملكني القلق حين عثرَت على الساعة، وأحسب أنها ارتابت في الأمر. ولم يكن باستطاعتها أن تعرف طبعاً، بل إن أحداً لم يعلم بشيء، ولكنها أخذَت تنظر إليّ بطريقة غريبة؛ فقد حسب الجميع أنني حاولتُ إنقاذ صاحبي ولا أعتقد أنها شاركتهم هذا الاعتقاد.

وفيما بعد (وأنا في المعسكر أقوم بخدمتي العسكرية) ذهبتُ وصديق لي يُدعى إيد إلى أحد أندية الميسر، وجانبني الحظ في تلك الليلة ففقدتُ كل ما معي من نقود فانتقلتُ لجيب إيد فاستبدل فِيشاته، وهكذا أخذنا طريق العودة وجيوبه محشوّة بالمال. وفاجأَنا شقيّان حين بلغنا مكاناً منعزلاً وهاجمانا بخنجريهما؛ فأصابتني طعنة في ذراعي ولكن إيد أُصيب بطعنة في صدره أغمي عليه على أثرها، ثم تناهى إلى سمعَينا صوت أناس قادمين فلاذ الرجلان بالهرب على الفور، ورأيتُ الفرصة سانحة ورأيتُ أنني أستطيع انتهازها فأسرعت بالعمل. لففتُ

يدي بمنديل وأخذتُ الخنجر من صدر إد وطعنته طعنتين نجلاوين فأرسل حشرجة وفاضت روحه. وتملكني الخوف -طبعاً- لحظة عابرة، ثم أدركتُ أنني سأكون على ما يرام وقلت لنفسي في شيء من الزهو والفخر: مسكين إيد، لقد كان غبياً دائماً. وتمكنتُ من نقل ما في جيوبه إلى جيوبي في دقيقة واحدة؛ فليس هناك أفضل من العمل السريع وانتهاز الفرصة المواتية. ولكن المشكلة هي أن الفرصة لا تسنح كثيراً، وأظن أن هناك أناساً يفزعون حين يعرفون أنهم قتلوا شخصاً، ولكنني لم أفزع. نعم، لم أفزع في تلك المرة.

على أن هذا ليس بالشيء الذي يمكن أن تقدِم عليه أكثر من مرة؛ فلا بد لكَ أن تعرف أن الأمر يساوي ما تجازف به. ولا أدري كيف عرفَت غريتا أمري، ولكنها عرفَت! لا أقصد القول إنها عرفَت بارتكابي جريمتَي قتل، ولكنني أريد القول إنها عرفَت أن فكرة القتل لن تصدم شعوري أو تثقل ضميري.

وقلتُ: ما هذه القصة الغريبة التي تتكلمين عنها يا غريتا؟

فأجابتني: أنا في موقف يمكّنني من مساعدتك؛ فيمكنني أن أعمل على أن تتعرف بفتاة من أغنى فتيات أمريكا، فأنا أعني بأمرها وأعيش معها ولي عليها سلطان كبير.

- هل تحسبين أنها تهتم بشخص مثلي؟

لم أصدق ذلك لحظة واحدة؛ فما الذي يدفع فتاة ثرية يمكنها أن تختار مَن تشاء من الرجال من بيئتها للاهتمام بأمري

أنا؟ قالت غريتا: أنت شاب وسيم وتدير رؤوس الفتيات بسهولة.

فضحكتُ قائلاً: هذا أمر لا يد لي فيه.

- إنها لم تلتقِ بشاب مثلك حتى اليوم؛ فقد ظل أهلها يقيمون حولها حصاراً شديداً، فهم لا يسمحون لها برؤية أحد من الشبان من غير مستواها وبيئتها (وأعني بهم أولاد أصحاب الأعمال وأصحاب الملايين) ويهيئونها لكي تتزوج واحداً منهم؛ فهم يخشون أن تلتقي ببعض الأفّاقين الذين يسعون خلف ثروتها، وعليكَ أن تلعب بفؤادها، وسيكون الأمر يسيرا بالنسبة لك لأن قلبها لم يتفتح للحب بعد.

قلتُ في شيء من الشك: أستطيع أن أحاول.

ردّت غريتا: يمكننا أن ندبّر ذلك.

- ستتدخل أسرتها وتفسد الخطة.

- لا، لن يفعلوا شيئاً من هذا؛ فهم لن يعرفوا الحقيقة إلا بعد فوات الأوان، أي بعد أن يتم زواجكما سراً.

- هذه فكرتك إذن؟

ودرسنا الأمر معاً ووضعنا الخطط، ولم نتناول كل شيء بالتفصيل في ذلك الوقت. على كل حال عادت غريتا إلى أمريكا، ولكنها ظلت على اتصالها بي، وحدثتُها عن أرض الغجر وقلتُ لها إنني أريدها، ورسمنا خططنا ودبرنا أمورنا بحيث يتم لقائي مع إيللي هناك.

نعم، دبرنا الأمر معاً، وقد كانت غريتا بارعة حقاً في رسم الخطط، وأظنني كنتُ لا أستطيع رسم أية خطة على الإطلاق ولكنني كنتُ أعلم أنني سأقوم بدوري خير قيام. وهكذا دبرنا كل شيء وتم لقائي بإيللي حسب الخطة الموضوعة. وراق لي الأمر، راق لي لأنه لم يخلُ من المخاطرة؛ فقد كنا نخشى أن يقع ما ليس في الحسبان. وكانت اللحظات الحرجة هي تلك التي التقيتُ فيها بإيللي لأول مرة؛ فقد عشتُها على أعصابي، إذ كان لا بد لي من أن أحرص على ألاّ يفتضح أمري أنا وغريتا، وحاولت عدم النظر إلى هذه الأخيرة وألاّ أبدي أي اهتمام؛ فاتفقنا على أن أسلم شيء هو أن أنفر منها وأن أدّعي إنني أغار منها، وقد قمتُ بدوري خير قيام.

ما زلتُ أذكر اليوم الذي أقبلَت فيه لكي تقيم معنا، فقد دبرنا شجاراً تسمعه إيللي، ولا أدري إن كنا قد بالغنا في هذا الدور ولكنني لا أعتقد ذلك. كنتُ أخشى في بعض الأحيان أن تخمّن إيللي شيئاً، غير أنني لا أظن أن هذا قد حدث. لا أدري، لا أدري حقاً! فلم أستطع أبداً أن أفهم إيللي على حقيقتها.

لم يكن من العسير عليّ أن أتظاهر بمظهر المحب المخلص لزوجته، فقد كانت (هي نفسها) مخلوقة رقيقة، رقيقة جداً، ومع ذلك فقد كنتُ أخشاها لأنها كانت تُقدِم على أشياء لا تطلعني عليها، وكانت تعرف أشياء لم يخطر لي أنها تعرفها، لكنها كانت تحبني. نعم، كانت تحبني وكنتُ أظن أحياناً أنني أحبها أنا الآخر.

ولكنني لا أقصد أنها كانت تشبه غريتا؛ فقد كانت غريتا هي المرأة التي تملك حواسي وتشد مشاعري وكنتُ مفتوناً بها، وكانت إيللي تختلف عنها. نعم، إن الأمر يبدو غريباً الآن وأنا أفكر في كل ذلك من جديد؛ فقد طابت لي العيشة معها لأبعد الحدود.

إنني أسجل كل ذلك الآن لأن هذه هي الأفكار التي كانت تدور برأسي وأنا عائد الآن من أمريكا، وأنا عائد إلى قمة الدنيا بعد أن حصلتُ على كل شيء، على الرغم من كل المجازفات وعلى الرغم من كل الأخطار وعلى الرغم من أنني أقدمتُ على جريمة قتل لم يتطرق لأحد أي شك بشأنها.

نعم، كانت جريمة قتل كاملة مثالية لن يستطيع أحدٌ أن يكتشفها. لقد ولّت المجازفات الآن وولّت الأخطار، وها أنذا أعود إلى أرض الغجر وأسلك نفس الطريق الذي سلكتُه بعد أن رأيتُ إعلان البيع بالمزاد وذهبتُ لرؤية البيت المتداعي، فانتهيتُ إلى آخر الطريق وأشرفتُ على المنحنى.

وعندئذ فقط رأيتُها (أعني إيللي) في ذلك المكان الخطر الذي وقعَت فيه الحوادث! كانت واقفة هناك في ظل شجرة الشوح، في ذلك المكان الذي جفلَت فيه كما جفلتُ أنا أيضاً حين التقينا أول مرة، حين دنوتُ منها وتكلمتُ معها وقمتُ بدور الشاب الذي يقع في الحب فجأة.

نعم، لقد قمتُ بذلك الدور ببراعة، ألم أقل لكم إنني ممثل قدير؟

ولكنني لم أتوقع رؤيتها الآن؛ ما كنت أستطيع رؤيتها بعد الذي حدث لها، ولكني رأيتُها! كانت تنظر إليّ، ولكن كان هناك ما أفزعني؛ فقد كنتُ أعلم أنها لا يمكن أن تكون هناك لأنها ماتت ودُفنت في المقبرة في أمريكا، ولكنها مع ذلك كانت واقفة أمامي في ظل شجرة الشوح تنظر إليّ كما لو كانت تتوقع رؤيتي وقسماتها تنطق بالحب! نفس الحب الذي رأيتُه ذات يوم، ذلك اليوم الذي كانت تجري فيه بأناملها على أوتار القيثارة، ذلك اليوم الذي قالت فيه: فيمَ تفكر؟

فأجبتُها: لماذا تسألينني؟

فردّت: لأنك تنظر إليّ كما لو كنتَ تحبني!

فأجبتُها قائلاً: أنا أحبك طبعاً.

وتسمرتُ في مكاني، تسمرتُ في عرض الطريق وأخذتُ أرتجف وهتفتُ قائلاً بصوت مسموع: إيللي!

لم تتحرك، بل ظلت واقفة مكانها تنظر، وهذا ما أفزعني بالذات لأنني أدركتُ أنني إن فكرتُ لحظة واحدة فسأعرف لماذا لا تراني؟ وما أردتُ أن أعرف. كانت تنظر ملياً إلى المكان الذي أقف فيه من غير أن تراني، وعندئذ جريتُ وقطعتُ بقية الطريق فلم أقف لكي أسترد أنفاسي إلا حين رأيتُ الأنوار تتلألأ في بيتي.

كان هذا البيت هو بغيتي وغايتي. عدتُ إلى بيتي وإلى الأشياء الأخرى التي تمنيتُها أكثر من أي شيء آخر في الدنيا؛ إلى المرأة الرائعة التي تسيطر عليّ قلباً وقالباً، سنتزوج الآن

ونقيم في البيت فقد حصلنا على كل ما نريد ونجحنا.

ولم يكن الباب مقفَلاً بالمزلاج فانفتح حين دفعته، ومسحتُ قدميّ ومضيتُ إلى غرفة المكتبة، وهناك كانت غريتا واقفة أمام النافذة تنتظرني. كانت رائعة، بل كانت أجمل فتاة وقع عليها بصري. نعم، كانت لحظة من أجمل لحظات حياتي.

* * *

ولم نلبث أن هبطنا إلى الأرض، وجلسَت ودفعَت إليّ كومة من الرسائل، وبحركة آلية اخترتُ من بينها رسالة عليها طابع أمريكي. كانت هي الرسالة التي أرسلها إليّ ليبنكوت عن طريق الجو، وتساءلتُ: ماذا تراه كتب إليّ في الرسالة؟

ردّت غريتا وهي ترسل تنهيدة عميقة تدل على الارتياح: حسناً، لقد نجحنا، النصر لنا.

وضحكنا معاً، ضحكنا من قلب خلي، وقلت وأنا أردّد البصر حولي: هذا المكان رائع، إنه أجمل مما أذكر، إن سانتونكس... ولكنني لم أقل لكِ إنه قد مات.

فردّت غريتا: هذا شيء يُرثَى له، إذن فقد كان مريضاً حقاً؟

- كان مريضاً حقاً، وإن كنتُ لم أشأ تصديق ذلك. لقد ذهبتُ لزيارته وهو على فراش الموت.

سرَت رعشة في بدن غريتا وقالت: ما كنتُ لأحب أن تقوم بمثل هذه الزيارة. هل قال لك شيئاً؟

- لم يقل شيئاً ذا معنى: قال إنني ملعون وكان يجب عليّ أن أسلك الطريق الآخر.

- ماذا يعني؟ أي طريق آخر؟

- لا أدري ما الذي كان يعنيه، أظنه كان يهذي ولم يكن يدري ما يقول.

قالت غريتا: حسناً، لقد أصبح هذا البيت نصباً رائعاً يخلِّد ذكراه، أظن أننا سنحتفظ به، أليس كذلك؟

نظرتُ إليها مشدوهاً وقلت: هل تعتقدين أنني سأقيم في مكان آخر؟

- ولكننا لا نستطيع البقاء هنا طوال الوقت، أعني على مر السنة؛ لا نستطيع أن ندفن نفسَيْنا هنا في هذه القرية.

- ولكنه المكان الذي أريد الإقامة فيه، لقد أردتُ دائماً أن أعيش هنا.

- نعم، طبعاً، ولكن لا تنسَ يا مايك أننا أصبحنا نملك ما نريد من مال ونستطيع الذهاب إلى كل مكان، نستطيع أن نطوف العالم ونعيش حياة كلها مغامرات، ألا يروق لك أن نحيا حياة كلها مغامرات؟

- حسناً، أظن ذلك، ولكننا سنعود دائماً هنا، أليس كذلك؟

خامرني فجأة إحساس غريب، إحساس بأن الأمور لا تجري كما أريد؛ فأنا لم تكن لي غير أمنيتين هما بيتي وغريتا. لم أكن أريد شيئاً آخر غيرهما، لكن غريتا تريد شيئاً آخر وستريد أشياء أخرى. لقد بدأتُ أشعر بأنها تستطيع الحصول على ما تريد، وقد أزعجني هذا أيما إزعاج!

- ما الخبر يا مايك؟ أنت ترتعش! هل أصبتَ بنزلة برد؟

- ليس الأمر كذلك.

- ما الذي حدث إذن يا مايك؟

- لقد رأيتُ إيللي.

- ماذا تعني بأنك رأيتَ إيللي؟!

- حين أشرفتُ على آخر الطريق وانعطفتُ مع المنحنى، رأيتُها واقفة في ظل شجرة الشوح تنظر إليّ، تنظر نحوي.

جفلَت غريتا وقالت: لا تكن أحمق، لقد تهيأ لك.

- ربما تتهيأ للمرء أمور، ومهما يكن فنحن في أراضي الغجر. لقد كانت إيللي واقفة، كانت تبدو سعيدة كما كانت دائماً.

أمسكتني غريتا من كتفي وهزتني قائلة: مايك، لا تتكلم هكذا يا مايك، انسَ إيللي.

فقلتُ بإصرار وعناد: كانت هي إيللي.

- لم تكن إيللي بكل تأكيد؛ لقد كان وهماً صوّره لك الضوء.

- كانت إيللي وكانت واقفة هناك تنظر إليّ، ولكنها لم ترني، لم يكن في مقدورها أن تراني يا غريتا. وارتفع صوتي وأنا أقول مستطرداً: أنا أعرف لماذا؟ أعرف لماذا لم يكن في مقدورها ذلك.

حينئذ تكلمتُ بصوت خافت لأول مرة: لأنني لم أكن موجوداً، لم أكن هناك... لم يكن في مقدورها أن ترى غير الليل الطويل الذي لا ينتهي.

ثم استأنفتُ أقول بصوت مرتفع متهدج من الذعر والانفعال: «يولد بعضهم للسعادة والهناء، ويولد البعض الآخر لليل طويل الشقاء». هل تذكرين كيف كانت أناملها تجري على القيثارة وهي تشدو بصوتها الرقيق: «كل ليل وكل صبح يولد بعضهم للهناء، وكل صبح وكل ليل يولد بعضهم للشقاء»؟ كانت إيللي التي وُلدت للسعادة والهناء، أما أنا فما وُلدت إلا للتعاسة والشقاء. كانت أمي تعرف ذلك وكذلك سانتونيكس، كان يعرف هو الآخر أنني أسلك طريق الشر. كان في مقدوري العيش سعيداً والبقاء سعيداً مع إيللي.

قالت غريتا: لا، ما كان في مقدورك. لم أكن أعتقد أنك من هذا الطراز من الرجال الذين يفقدون جأشهم يا مايك.

وهزتني من كتفي مرة أخرى قائلة: عِش في الواقع ودعكَ من الأوهام.

حملقتُ فيها قائلاً: أنا آسف يا غريتا، ماذا قلتُ لكِ؟

- لا ريب أنك واجهتَ محنة كبيرة في الولايات المتحدة، ولكنك كنتَ فوق المستوى، أليس كذلك؟ أعني أنك تغلبتَ عليها وأن كل شيء الآن على ما يرام؟

- نعم، كل شيء على ما يرام ومستقبلنا مضمون، مستقبلنا العظيم الرائع.

- أنت تتكلم بطريقة غريبة، ترى ماذا يقول ليبنكوت في رسالته هذه؟

تناولتُ الرسالة وفضضتُها. لم يكن بداخلها شيء فيما عدا قصاصة من الورق اقتُطِعَت من جريدة قديمة، قصاصة استحال لونها إلى اللون الأصفر. نظرتُ إليها في ذهول؛ فقد رأيتُ صورة شارع سرعان ما عرفته. كان أحد شوارع مدينة هامبورج يسير فيه شاب وفتاة وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر، صورتي أنا وغريتا!

كان ليبنكوت يعرف إذن! كان يعلم أنني أعرف غريتا. إنني أذكر الآن سؤاله لي عمّا إن كنتُ قد التقيتُ بغريتا أندرسون قبل ذلك؟ لقد أنكرتُ الأمر طبعاً، ولا ريب أنه بدأ يشك في أمري من تلك اللحظة بالذات. تملكني الخوف من ليبنكوت فجأة، لا يمكن أن يخامره الشك في أنني قتلتُ إيللي ولكنه كان يشك في شيء مع ذلك، فقلتُ مخاطباً غريتا: أصغي إليّ،

ليبنكوت يعلم أن كلاً منا كان يعرف الآخر، إنه يعلم ذلك منذ زمن طويل. لطالما كرهتُ هذا الثعلب العجوز، إنه يكرهك كل الكراهية وحين يعلم أننا سنتزوج سيشك في أمرنا.

ولكنني ما كدتُ أنطق بكلماتي الأخيرة حتى عرفتُ أن ليبنكوت قد داخله الشك حتماً في أننا سنتزوج أنا وغريتا وأنه يعرف أننا كنا نعرف بعضنا بعضاً، ولعله كان يشك في أننا عاشقَين.

- مايك، لا تكن جباناً رعديداً. لقد أُعجبت بك، أُعجبتُ بك دائماً، ولكنك ترتعش الآن وتتهاوى. إنك تخشى كل شخص.

- لا تقولي هذا.

- أنا أقول الحقيقة.

- ليل طويل لا ينتهي!

لم أستطع التفكير في أي شيء آخر... كنت لا أزال أتساءل عن معنى هذا: ليل طويل لا ينتهي. وأطرقتُ برأسي وأنا أقول: الليل الطويل الذي لا آخر له.

فصاحَت غريتا: كف عن هذا القول واسترد جأشك، كن رجلاً يا مايك، دعك من هذه الخرافة السخيفة.

- لا حيلة لي؛ لقد بعتُ روحي لأرافق الغجر! لم تكن أراضي الغجر آمنة أبداً، لم تكن آمنة أبداً لأي أحد. كانت آمنة

بالنسبة لإيللي ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لي، ولعلها ليست آمنة بالنسبة لكِ.

- ماذا تعني؟

نهضتُ واقفاً وسرتُ نحوها. لقد أحببتُها، نعم، وما زلتُ أحبها، ولكن ما الحب؟ وما البغضاء؟ أليسا شيئاً واحداً؟ ما كان في استطاعتي أن أبغض إيللي، ولكنني كرهتُ غريتا واستمتعت بكراهيتي لها، كرهتُها من كل قلبي وشعرتُ بلذة كبيرة لإحساسي هذا، ولم أستطع أن أنتظر وسائل الأمان، لم أشأ انتظار هذه الوسائل.

ازددتُ دنواً منها وقلتُ: أيتها اللعينة، أيتها البغيضة الرائعة الشقراء! أنتِ لستِ في أمان يا غريتا، لستِ في أمان معي. هل تفهمين؟ لقد تعلمتُ الاستمتاع بالليل، قتل الناس، أحسستُ باستمتاع كبير في اليوم الذي عرفتُ فيه أن إيللي خرجَت على صهوة جوادها لتلاقي الموت، ولكنني لم أقتلها بيدي والأمر الآن مختلف، فأنا أريد أكثر من معرفتي بأن شخصاً سيلاقي الموت بسبب قرص أُعطي له مع طعام الإفطار، أريد أن أستخدم يدي.

استولى الخوف على غريتا عندئذ، هي التي أحببتُها أكثر من أي شخص آخر، منذ أن التقيتُ بها في ذلك اليوم في هامبورج، والتي من أجلها تخليتُ عن عملي وتظاهرتُ بالمرض لكي أبقى معها هناك. نعم، أحببتها كل الحب، ولكنني لم أعد أشعر بأي حب لها الآن؛ فقد استرددتُ نفسي وانتقلتُ إلى مملكة أخرى غير تلك التي طالما حلمت بها.

استولى الخوف عليها، وطاب لي أن أراها خائفة هكذا فأطبقتُ بيديّ على عنقها. نعم، وحتى الآن -وأنا جالس في مكاني هذا أسجل كل شيء مر بي- ما زلتُ أحس بسعادة وأنا أقوم بذلك، أسجل كل شيء مر بي: الأحداث، والأحاسيس، والفشل. نعم، كنت بالغ السعادة وأنا أقتل غريتا!

* * *

الفصل الثاني والعشرون

ليس هناك ما يستحق الذكر بعد ذلك حقاً، فقد بلغَت القصة الذروة، وأظن أن المرء ينسى أحياناً أن ما يأتي بعد ذلك لا يمكن أن يكون خيراً وأنه قد حصل على كل شيء.

لقد بقيتُ جالساً في تلك الغرفة مدة طويلة. ولا أدري متى أقبلوا أو إذا كانوا قد أقبلوا فرادى أم دفعة واحدة، غير أني أعلم أنهم لم يكونوا موجودين منذ البداية وإلا لحالوا بيني وبين قتل غريتا. إلا أنني لاحظت أن الميجور فيليبوت قد أتى قبلهم، لقد أحببتُ هذا الرجل دائماً؛ فقد كان كريما جداً وعادلاً ويبذل عصارة نفسه لغيره.

لا أدري ماذا اكتشف فيليبوت عني، ولكنني أذكر نظرته الغريبة التي رماني بها في ذلك الصباح في صالة المزادات حين قال لي أن إحساسي معناه نذير شؤم. وإنني لأعجب ما الذي جعله ينطق بمثل هذا القول. وعندما كنا هناك واكتشفنا جثة إيللي بعد سقوطها من فوق جوادها هل خطر له (في ذلك الحين) أن لي يداً في ذلك؟

وكما سبق لي القول ظللتُ جالساً مكاني بعد موت غريتا.

كان هناك مصباح واحد يضيء الغرفة من أحد الأركان ولكن نوره كان ضعيفاً، وكانت الشمس قد غابت منذ زمن طويل، فبقيتُ مكاني وأنا أتساءل في شيء من الغباء: ما الذي سيقع بعد ذلك؟ وأظن أن القوم بدؤوا يأتون بعد ذلك، أو لعلهم أتوا جماعة، وقد أقبلوا في سكون وهدوء، أو لعلني فقدتُ حاستَي السمع والنظر في ذلك الحين.

وبعد فترة لاحظتُ وجود الطبيب شو. كان هادئاً لا تصدر منه أي حركة، كان يجلس بجواري ينتظر شيئاً، وبعد لحظة خطر لي أنه ينتظر مني أن أتكلم فقلت له: لقد عدتُ إلى بيتي.

كان هناك رجل أو رجلان آخران يتحركان في مكان ما خلفي، وكان يبدو أنهما ينتظران، ينتظران منه أن يفعل شيئاً، وقلتُ: لقد ماتت غريتا، قتلتُها. أظن أن من الأفضل نقل الجثة بعيداً، أليس كذلك؟

ومض وهجٌ في تلك اللحظة؛ لا ريب أن أحد رجال الشرطة التقط صورة للجثة، فأدار الدكتور شو رأسه إليه وقال يخاطبه: ليس الآن. ثم تحول إليّ فانحنيتُ إليه قائلاً: لقد رأيتُ إيللي الليلة.

- حقاً؟ أين؟

- في الخارج، كانت واقفة بجوار إحدى أشجار الشوح في نفس المكان الذي رأيتُها فيه لأول مرة. وأمسكت لحظة ثم استطردتُ: ولكنها لم ترني، ما كان في مقدورها أن تراني

لأنني لم أكن موجوداً. وأردفتُ أقول بعد لحظة: لقد أقلقني هذا الأمر جداً، أزعجني جداً.

قال الطبيب شو: لقد وضعتَ سمّ السيانور في ذلك القرص الذي أعطيتَه لإيللي في ذلك الصباح، أليس كذلك؟

- كان هذا لمعالجة الحساسية التي تشكو منها، وكانت تتناول قرصاً قبل أن تركب جوادها دائماً حتى لا تعاودها الحساسية، وقد عالجتُ (أنا وغريتا) قرصاً أو قرصين في الخلوة، كان هذا عملاً جميلاً، أليس كذلك؟

وضحكتُ! كانت ضحكة غريبة سمعتُها بنفسي، وبدت أشبه بقهقهة صغيرة، واستطردتُ: لقد فحصتَ كل الأدوية التي كانت تتناولها حين أتيتَ كي تعالج كاحلها (الحبوب المنومة وأقراص الحساسية) وتركتَها مكانها قائلاً إنه لا بأس بها ولا خطر منها.

فقال الطبيب: لم يكن هناك خطر منها على الإطلاق؛ فهي أقراص عادية.

- كان عملاً يدل على ذكاء خارق، أليس كذلك؟

- لقد كنتَ ذكياً حقاً، ولكن ليس بالقدر الكافي.

- لا أدري كيف استطعت اكتشاف الحقيقة؟

- اكتشفنا الحقيقة في اليوم الذي وقع فيه الحادث الثاني، الحادث الذي لم تتوقع حدوثه.

- كلوديا هارد كاسل؟

- نعم؛ فقد ماتت بنفس الطريقة التي ماتت بها إيللي، وقعت من فوق جوادها في الغابة. لقد كانت تتمتع بصحة جيدة، ولكنها وقعَت -هي الأخرى- من فوق جوادها وماتت، ولعب عنصر الوقت دوراً كبيراً في موتها، فأسرعوا إليها على الفور واشتمّوا في الجو رائحة السيانور، ولو أنها بقيَت وحدها ساعتين في الهواء الطلق كما بقيت إيللي لتبخر السيانور ولما شمّوا شيئاً ولما ارتبنا في شيء. لا أدري كيف حصلَت كلوديا على القرص المسموم، إلا إذا كان قد وقع منكما في الخلوة، وقد كان من عادة كلوديا أن تختلف إليها؛ فقد عثرنا على بصماتها هناك كما عثرنا على قداحتها.

- لا ريب أننا كنا مهملَين أنا وغريتا؛ فقد كان دس السم في الأقراص أمراً عسيراً.

ثم أردفتُ: شككتَ إذن في أن لي يداً في موت إيللي، أليس كذلك؟ أنت والجميع؟

ورددتُ البصر في الأشباح من حولي ثم قلتُ: لعلكم جميعاً شككتم في ذلك؟

- إن المرء يعرف أحياناً، غير أني لم أدرِ ماذا أفعل.

فقلتُ في استنكار: يجب أن تلقي القبض عليّ.

قال الطبيب شو: أنا لستُ من رجال الشرطة.

- مَن تكون إذن؟

- أنا طبيب.

- أنا لستُ بحاجة إلى طبيب.

- هذه مسألة تحتاج إلى نظر.

نظرتُ إلى فيليبوت قائلاً: ماذا تفعل؟ هل أتيتَ إلى هنا لكي تحاكمني أم لكي ترأس محاكمتي؟

فقال: إنما أنا قاض من قضاة السلام فقط، وقد أتيتُ بصفتي صديقاً.

جفلتُ قائلاً: صديق لي؟

- بل صديق لإيللي.

لم أفهم، لم يكن هناك أي معنى لكل ما يدور حولي، ولكن لم يسعني إلا أن أشعر بمدى أهميتي؛ فكل هؤلاء القوم عندي أنا: الشرطة، والأطباء، وفيليبوت... مع أن هذا الأخير كثير المشاغل على طريقته. كان الأمر كله معقداً جداً وبدأتُ أفقد حساب الزمن. كنت مرهقاً جداً وكان التعب يتملكني لأقل مجهود أبذله، وأحسستُ بحاجتي إلى النوم.

كان هناك قدوم ورواح. أقبل الناس لرؤيتي من كل نوع: رجال القانون، والمحامون، والأطباء، أطباء كثيرون، ولاحقوني كلهم بأسئلتهم فلم أشأ أن أرد عليهم. وظل أحدهم يسألني إن كنتُ بحاجة إلى شيء، وقلتُ له إنني بحاجة فعلاً إلى شيء واحد: قلم حبر وكمية من الورق؛ فأنا أريد أن أسجل كل ما وقع لي وكيف نَبَتَ كل شيء في ذهني. أردتُ أن أخبرهم

بمشاعري، فقد يهمهم معرفة كل شيء لأنني كنت شخصاً كثير الأهمية حقاً، ولقد أقدمتُ على أعمال شائقة.

وقال الأطباء (وهو طبيب واحد على كل حال) إنها فكرة لا بأس بها، واستطردتُ أقول: إنكم تأخذون أقوال المتهمين، فلماذا لا أسجل أقوالي أنا أيضاً؟ مَن يدري؟ لعل الجميع يقرؤونني ذات يوم.

وسمحوا لي أن أكتب، فلم أكتب قصتي دفعة واحدة؛ إذ كان أقل مجهود ينهك قواي. كان عليّ بعد ذلك أن أحضر المحاكمة، فأصررتُ على أن أكون أنيقاً أنني أردتُ الظهور بمظهر لائق. لقد جاؤوا بأمي كي تراني فجأة ذات يوم، ووقفَت بالباب تنظر إليّ لم يبدُ عليها القلق حينئذ كما كانت دائماً، وإنما نظرَت إليّ في حزن، وم نتبادل (لا أنا ولا هي) الكثير واكتفَت بالقول: لقد حاولتُ يا مايك، بذلتُ جهدي كي تعيش في أمان ولكنني أخفقتُ، كنتُ أخشى دائماً أن أخفق.

- لا باس يا أماه، ليست غلطتك، فقد اخترتُ طريقي.

وفكرتُ فجأة: هذا ما قاله سانتونيكس، هو أيضاً كان يخاف عليّ ولم يستطع أن يفعل شيئاً من أجلي هو الآخر، وما كان في وسع أحد عمل شيء فيما عداي أنا، ربما... لا أدري، لستُ واثقاً ولكنني أتذكر -من حين لآخر- ذلك اليوم الذي قالت لي إيللي فيه: فيمَ تفكر وأنت تنظر إليّ هكذا يا مايك؟ قلت: وكيف ترينني أنظر إليكِ؟ قالت: أنت تنظر إليّ كما لو أنك تحبني.

وأظن أنني أحببتها بطريقة ما؛ فقد كانت إيللي حلوة جداً، خُلقَت لكي تكون سعيدة، وأظن أن العلة بي هي أنني أردتُ أشياء كثيرة دائماً وأردتُ الحصول عليها بأسهل الطرق وبدون بذل أي مجهود.

في اليوم الذي ذهبتُ فيه إلى أراضي الغجر والتقيت بإيللي وبينما كنا نهبط المنحدر معاً قابلتنا إستر، في ذلك اليوم فكرتُ في تلك المرأة وفي إنذارها الذي وجهَته إلي إيللي، وقررتُ أن أدفع لها كي أحرضَها على ما تقول لأنني أدركتُ أنها لا تُحجِم عن شيء في سبيل المال، وقد نقدتهُا مبلغاً كبيراً بالنسبة لي، وبدأت توجه إنذاراتها لإيللي وأفزعَتها، وجعلَتها تعتقد أنها في خطر.

وقد خطر لي أن موت زوجتي قد يُعزَى إلى سقطتها من فوق جوادها، وفي ذلك اليوم (وأنا واثق من قولي هذا) خافت إستر حقاً فأنذرَت إيللي، أنذرَتها بمغادرة أراضي الغجر وألا تبقى فيها، والواقع أنها أنذرَتها بأن تكون على حذر مني فلم أفهم ذلك ولا إيللي فهمت هي الأخرى.

هل كانت إيللي خائفة مني؟ أظن أنها كانت خائفة وإن لم تدرك ذلك.

كانت تعلم أن هناك ما يتهدّدها وأن هناك خطراً يحوم حولها، وكان سانتونيكس يعرف الشر الكامن في نفسي تماماً كما كانت أمي تعرف عني، ولعل ثلاثتهم معاً كانوا يعرفون؛ كانت إيللي تعرف لكنها لم تُعِر ذلك اهتماماً أبداً. إن هذا غريب! وإن كنتُ أعلم الآن أننا كنا سعيدَين جداً معاً.

نعم، سعيدَين جداً. ليتني عرفتُ عندئذ أننا كنا سعيدين! لقد أضعتُ فرصتي، ولا ريب أن لكل منا فرصة، أما أنا فقد أوليتُ لها ظهري.

إن هذا غريب، بل غريب جداً؛ إن غريتا لا تهمني أبداً! وحتى بيتي الجميل لم يعد يهمني. إيللي فقط، وإيللي لن تجدني أبداً؛ فقد طواني الليل، الليل الطويل الذي لا ينتهي.

وهذه هي نهاية قصتي.

«في نهايتي بدايتي»... هذا ما يقوله الناس دائماً، فما معناه؟ وأين تبدأ قصتي بالذات؟ يجب أن أعرف.

* * *

(تمت)